خواطر في هامش مقالة

الى الأستاذ الدكتور سعدون حمادي المحترم.
بعد التحية و التجلة.

وثيقة نادرة
سلمت بواسطة كامران الى
المرحوم سعدون حمادي 1/ 4 / 2003

عشمي ألا تجد كلاماً فاقداً لمقومات التأثير و التغيير من قبيل التطفل المرفوض فالكلام المنشور هو في أحد مضامينه دعوة الى تثمينه دونما نظر الى القائم بالتثمين و مكانه في مراتب الخطورة و رُبّ صيي نطق حكمة. و يكفي تنزيهاً لما أقوله هنا أنه في أحسن أحتمالاته الى قائلة لا يضيف الى قليلة شيئاً، و في الأحتمال المعاكس بالنسبة الى غيره لا ينقص مثقال خردل في أي شئ قابل للزيادة و النقصان. أما أنه يشغل القارئ بلا جدوى فليكن ذلك من باب التسلى بحل الكلمات المتقاطعة أو قراءة قصة من الأضاحيك. و الحياة بحاجة الى فسح يرتاح فيها القلب: "روحوا القلاب ساعة بعد ساعة.." كلام جليل قيل من 14 قرناً... و أسمح لي أن أقدم توضيحاً يساعد على تقبل تصرفي فأني أرى منذ زمان و في أسف محسوس أن السياسة سطت، فيما سطت، على أثنين من الكتاب المفكرين العراقيين فأحتكرتهما لسوقها أحدهما كردي هو المرحوم علي حيدر سليمان فقد أستهل حياته الفكرية في عمر مبكر بكتابه المدرسي في تأريخ أوروبا الحديث بأول الثلاثينات و كان يبشر كالفجر بأشراقة ثرة إذا تنامى في العطاء. و ثانيهما في الترتيب الزمني عربي هو سيادتك فقد ألتقيت بمقالاتك بعد إنقلاب – أو سمها ثورة – 8 شباط 1963 أي من نحو ثلاثين سنة فكانت خليقة، بنظري، أن تحدث نقلة في الكتابة السياسية العربية المنشورة في الصحف إذا تأتي لها أن تتنفس في جو يساعد على التوسع و التعمق خارج مضايق السياسة و تشنجاتها و تلوياتها في عالمنا الثالث – بعد المئة! مدعومة بالسند الذي نهضت عليه إبتداء. لم أملك وقتها إلا أن أتذكر الدكتور محمد مندور و أنا أقرأ لك. و لكن أكن محاطاً من كل جهة بمثبطات العزم في الأستواء على سواء نحو التزود بمصادر الثقافة و التكثر من جمع نفقات الأقلام بسبب أنقطاعي من منبتي منذ عام 1965 عائلاً ينوء بالألتزانات الموروثة المحاطة و نسلخاً من أرث كفيل بالمعيشة، سلخته القوانين العاتية الملغية للملكية المشروعة منذ أول الثورة في 1958 و ما تبعها من أحوال و عهود زادت تشديداً بلا تبرير حتى الظلم النهائي لتراثي الذي صودر ضمن ما صودر بالقانون رقم 90.. الى آخر المزعجزات التي قصرت بي عن متابعة الأصدارات المتصاعدة الثمن، فأني رغم ذلك ما خلوت تماماً من إصداء بعيدة لما تقول و تكتب و كانت فترة رئاستك للمجلس الوطني تتيح ظهورك مدير لجلساته و مناقشاً بعض موضوعاته فيتسنى لي منها بناء تقويم لنوع التطور و مقداره من قابلياتك بقياسها الى ما عاينته منها في مقالاتك فما خاب ظني فيك من ناحية الطلاقة و السيطرة على تصريف المناقشات في المواد الهامشية التي يوكل النظر فيها الى المجالس التشريعية عادة في أي بلد تأسس به عهد ثوري و أأستنفعت منها أيضاً صدق توقعي لأنتاج غلالة سياسية عبر الزمن حول لمعانك المبكر في الستينات فأضفت عليه من ألوانها ما جعل نظوجك المنتظر من سجيتك و

طبيعتك يعتريه غموض في وضوح صورتك الحاصلة من خلال مقالاتك التي صدرت بروح هاوي السياسة في إطار رقابة رخوة في بداياتها تحتاج زمناً حتى تتصلب و تحول دون ظهور الطبائع الجبلية فوجدتك في المجلس الوطني محترف سياسة يمشي بالضرورة في شارع لا يسهل تخطيه. و الواقع إني لست من متتبعي أعلام أية دولة ثورية راسخة على أقانيم ثابتة و مسلمات مفروغ منها يمكن حفظها فيما تكرر نفسها و تبرر ذاتها و تنشط في تجريم أي شئ غير متناغم مع تلك الأقانيم. و يزيدني بعداً من النمطية أيماني و يقيني بأن التقدم الحضاري منوط بتجاوز المراوحة فيالعقائد و الأفكار و أي شئ متصل بالأنسان فهو عنصر التغيير و المتغير الأجتماعي الوحيد في الكون الذي نحسه و ما من عدو متصور للأنسان في شراسة (الأيديولوجيا) التي تناهت الى التجوهر المتنع من التغير: يزول الأحتلال الأجنبي و يخسر الطوفان و التسخط و الوباء و تبقى الدروشة و الهلوسة في العقائد و السياسة آخذو بخناق الأبرياء و المجرمين و المحايدين، تحفر الأخاديد في مسار التطور أخدوداً بعد أخدود بلا كلل أو فتور و تظل تتبعت أسباب الخصومات بين الأقارب و الأباعد.. و الحكاية في هذا الباب طويلة أخلص منها لأقول أني كنت أسئل نفسي من عادتي في التواري من الأعلاميات لأراك و أسمعك في التلفزيون أحياناً و أناشدود لا الى مواءا الجلسة بل الى ما حنيك المرسم في مقالاتك ترقباً لمعاينتك و قد عدت الى التلبس به في اللمحة و الخطرة و الكلمة إذ تطفو من الأعماق الى السطوح فقاعات ذهنية و نفسية ناجية من موانع التعليمات و المخطورات، و الى لأمس في هذه الأحوال عنا، يقرب من عناء الشخص المَتحَن بالتوفيق بين ما تنزع اليه روحه و بين ما هو ملتزم به على علاته. أنا لم ألتق إلا بالقليل من كتاباتك، شأني فيه كشأني في عموم الكتابات لأصحاب التعلم و المرتبة والوسائل الترسيم و التخطيط و لكنك، بلا شك، واحد من عدد قليل تستوقفني كتاباتهم رغم علمي بالظوابط التي بدأت تفرض نفسها على منطقك المعلن منذ رجوع حزبك الى الحكم سنة 1968 ،تزول الغرابة من قلة قرآتي بما كتبت و تكتب إذا تبين أن بعضاً من كتاباتي ولقآتي النمشورة في الصحف لا تصلني إلا بعد فوات زمانها بعمر قصير و بعضها لا تصلني إطلاقاً فكيف بمقالاتك في الصحف لا أرى جزء من مئة جزء مما ننشر و منها مقالاتك المعنوية (البراكماتية: الفكر فيخدمة الأستعمار) في جريدة الجمهورية فلا أذكر إني قرأت إلا واحداً آخر من أعدادها خلال الأشهر الأربعة هذه من عامنا هذا (1992) و أحتفظت من عدد الجريدة بنصفها الحاوي لمقالتك و ذهب النصف الآخر و فيها وجه الصحيفة الى حيث لا أدري فأمتنع لذلك أن أشير هنا الى يوم صدورها هذه المقالة كانت الحافز الى أمتشاق القلم حاول به أشباحاً لما يسمى بنات الأفكار من خطرات و ردئ و أوهام و قد سبق للطيب الذكر دون كيشوت (أم هو سانكلوبانزا:) أن حاول أبطالاً تمثلت له في طواحيني الهواء منذ قرون، رحم الله مبتدعه (سرفانش) بما كان من سبق فضله الى سرقة لكفن تأريخي ولله في خلقه شؤون!!

ليس غريباً أن أهتم بمقالك وقد أرتفعت الغرابة بما قاته من جلب مقالاتك القديمة لنظري، تضاف اليه حقيقة هامة أخرى هيأن لي آراء مشروحة و منشورة في أمور تناولها نقدك البراكماتية و لكن من زوايا خاصة بتفكيري و أقتناعي. و لكن تكن متابعة كل ما ورد من آرائك في هذه المقالة أمراً يضيف عنه الأمكان بسبب قابلية موضوعاتها للتوسع عمقاً و مدى حتى أن بعضها يمتنع من التحجيم و يتأبى على الأختصار إلا بمهارة السحرة فأني أرى مع ذلك أن ما يأتي من التعليق عليه و بيان رأي فيه لا يخلو من فائدة محتملة أو هو في الأقل خال من الضرر لأنه ليس للنشر، و الكلام على أي حال يُسأل عنه صاحبه.

"جاء في أوائل مقالك البراكماتيكي هو طريقة الوصول الى النتائجبغض النظر عن الوسائل المستعملة إذ لا يوجد فيه مقياس موضوعي لقياس الحقيقة لذلك فالمقياس الوحيد هو النجاح فكل شئ مقبول بدون قيود طالما أنه يعمل "أي ينجح" و السؤال الهام الوحيد هو هل هو يعود علي بالفائدة؟ فإذا كان كذلك فهو صحيح و جيد و إلا فهو خطأ و سيئ".

هذه الأسطر التي هي باب نستهل منه معارضتك للبراكماتية من دعوتها الى النجاح و تبريره بصراحة جارحة، هذه الأسطر التي لا يصدر مثلها من فمي أو قلمي لأسباب تنبع من مصادر و قناعات أراها أمثل و أليق أن تكون سبيلاً الى النجاح. هذه الأسطر التي لا أعرف مدى إلتزام صاحبها بالموضوعية فيها. هذه الأسطر بكل حثيتها المكشوفة و غير المكشوفة تحتمل مناقشة محايدة بعيداً من سبق الحكم عليها أو على البراكماتية من خلالها بالشجب و تدعوا المنصف الى وضع موضوعها موضعاً مناسباً بين نصوص و مناهج و عقائد كثيرة و صريحة من التشدد مع أخصامها أو منافسيها بصرف النظر عن الضرر أو الفائدة الناتجة منها و عما فيها من ضيق نظر و أستعباد و حظر منطق و تحريم مناقشة و ما أليها من أمور تزرى بالأنانية و لكن معتنقيها غافلون عن أنفسهم بسبب الأعتياد و الأستئناس الذي يجعل العقيدة مقطوعاً بصحبتها و مفروغاً من كونها حجة النقض لما يخالفها. ثم أن هذا الرأي صريح لا ألتواء من منطقة ولا توارى في مضمونه فهو لا يخدع الناس أو يغرر بهم الى أهداف مبيتة. و هذا مالا تفعله واحدة من الجماعات الآيديولوجية التي تقول شيئاً و تضمر شيئاً ينفذه عند المقدرة مع العلم بأنهم كلهم ذرائعيون على جهل منهم بحقيقتهم فأن كل واحدة منها تمثل هذا ال (أنا) الذي تخصه الذرائعية بالمنفعة و لكن تمارس المنفعة بشكل مخجل غير لائق بالبشر المتحضر و غير المتحضر لأسباب أغلبها واضح للعيان أولها أن ال (أنا) لا يتحقق في هذه الجماعات كما هو متحقق من الشخص الواحد بل لايرقى من تماسكه و توحده حتى الى مستوى النزكات المحتضرة التي تلتزم العمل و تمضى فيه الى نهايته بلا تزابح و تدافع داخلي فالآيديولوجيا التي تعتم السرور بين الجماعات المختلفة فتدفعها الى التهارش هي نفسها نقص فكري و إجتماعي و سياسي يقربها الى الحالة العصبية المرضية المألوفة المانعة من الأثمار الطبيعي الداخلي ولو عاينتها مما قرب لوجدت أفرادها على حال من القلق و الريبة لا يختلف عن الجذبة الصوفية و تستنتجاتها وفي بعد سحيق نت المناخ الصحي السليم السائد في أي مجتمع غير مريض. و ثانيهما أن الطموح الفردي في هه الجماعات المرضية غير خاضع لضوابط المصلحة المتحضرة و إنما يتحرك بصاحبه فيما يشبه حالة الشخص المتوغل في غابة. إصبعه على زناد مسدسه: فالسهولة التي تنبعث بها بين هذه الجماعات لها وجود دائم في النزاعات الداخلية و متهيئة لأستعمال دواء (...) الجسدية مع الزميل فقد ثمرن عليها ومهر فيما أبتداء من تأريخ نظاله مع خصومه مع ملاحظة شراسته الزائدة من معاداة زميسل منافس له على الزعامة فلا يهادنه كي قديها دن الخصم (و شرحت ذلك في بعض مواضع (من هموم الحياة) المطبوع في الثمانينات) فإذا كان الشريك في شركة غير مرضية يمنعه حرصه على سلامة عملياتها من إغاضة شريكه فأن المطامح الآيديولوجي ينشأ عادةً على معادلة (أتغذة بك قبل أن تتشبعي بي) مع أي زميل مرشح للتقدم عليه. يضاف الى ذلك سبب ثالث هو عام و شامل لكل شيئ في عالمنا الثالث وهو التخلف، فما عسى أن يفعل المتخلف إذا حاز القوة و السلطان غير إحكام قبضته على أنفاس الناس لتدوم له عزة و منعه جاءته من بيادر غيره.

و الذرائعية بريئة من أدعاء القديسة فهي منهج دنيوي أعتيادي يتحرى المعيشة المرفهة بلا قصائد و مارشات عسكرية و دبكات شعبية و هتافات تنشق منها الحناجر. و ذلك أن الأفكار التي فيها عبادة و الآيديولوجيات عموماً، و منها السياسية، لاسيما في البلدان المتخلفة، ذات أدعاء عريض في التقدس و النزاهة و البراءة على حين أنها تسحب نفسها الى الحاصر من ماض هو خط متصل من الدم و التدير و الأكتساح. ثم أن الذرائعية تشترط المنفعة لمشروعية العمل لكن كثيراً من أعمال (الأخلاقيين) بالأدعاء هو نقض و هدم و أفناء يكلف كثيراً من الجهد و ربما خلا من مطلق المنفعة و خير مثال على ذلك عملية (علماء الدين المفخخين) التي عزيت الى ناظم كزار فأنها نموذجية في القسوة و الغدر و عدم الجدوى و عدم تحقيق المنفعة فهي كما يبدو من شروط الذرائعية الموصوفة في مقالتك تحت خط (أستحسان) الذرائعية بدرجات و دركات. و لنصعد راجعين الى التأريخ: ترى أين المنفعة بل أين الضرورة بل أين التبرير لما فعله أهل جنوب

العراق من أغراء الأمام الحينحتى إذا وافاهم أعانوا على قتله مع أهله؟ العباسيون يجلسون على سماط للطعام تحته جثث الأمويين تئن و تختلج. أين المصلحة و المنفعة في تذابح المسلمين و الهندوس (أم هم من ملة أخرى) على حيازة مسجد في واحدة من مدن الهند؟ مناضلوا لبنان يقطعون الوطن والشعب مزقاً و الرفاق في عدن بعد الخلاص من المستعمر و تحقيق جنة الأستقلال يتذابحون حتى رقم 30 ألف قتيل! أن شعوب العالم الثالث و حكوماته عليها أن تقطع مسافات واسعة حتى تتجاوز العبث المأفون في المصالح و المنافع و الكرامات للدخول في دنيا البراكماتية التي ترفض أول ما ترفض الأنشغال بما هو غير مفيد و تستجب القفز الى الجريمة غير الضرورية لتحقيق منفعة يكفي فيها التعقل وقد تكون المصلحة فيترك المصلحة تفادياً للجريمة الباهظة الثمن. وأنا أذ تطوع بأفتراض الجريمة من وسائل الذرائعية من تحقيق المنفعة أتجاوز أعتبارات حاسمة و متعددة تزجل التوسل بالجريمة إلى آخر القائمة من باب التداوي بانكي وقد تقترب أن تلغيها بالمرة ذلك أن البراكماتية المفهومة من مقالك (وهي غير قريبة من البراكماتية الموصوفة في الموسوعة البريطانية) فلسفة أو منهج مطروح للمناقشة و لجميع الناس لا إكراه فيه و لا يحتمل الأكراه أصلاً من هي منهج رسمي لحزب أو حكومة أو جماعة منظمة مفروض بالقوة. و الناس العاديون قد يكونون أو لا يكونون براكماتيين معدم أن يكونوا سمعوا بها. و إذا كانت ترفض أو تقبل بوعي و إرادة فذلك محصور بالمثقفين وقد يتفانون في الآخذ بها أو يرفضونها على درجات و يختلفون من حيث التصرف من ضوئها. صحيح أنها ليست في راءة: "أعملوا الصالحات" التي تعني فيما تعني رعاية الحقوق على حين تحدد البراكماتية المفهومة من مقالك هدفها بأنه (الشيئ المفيد لي) ومن هنا ينبعث أتهامها بالمصلحة و الأنتهازية و عدم شجبها للجريمةإذا حققت مصلحة، ولكن الدفة الذي يعني (أشترط المنفعة) تكشف صعوبة الظرف المؤاتي للجريمة كي تتحقق مصلحة فالمجتمعات المتقدمة التي تلد البراكماتية لا تسهل فيها مخالفة القوانين على النحو الذي تشاهد في الأفلام و المسلسلات. و الجرائم المربحة هي التي يتم يها التحايل على القانون و النظام و ليست هي القتل و التعجز بشكل عام لأن الغرض كسب منفعة ناجية من العقوبة و نادراً ما يحكون القتل وما شابهه باباً للأنتفاع في حياة عموم الناس. صحيح أن صيغة الراكماتية لا ترفض الكسب الحرام ولكن صحيح أيضاً أنها تستبعد كسباً مادياً وراءه السجن و الفضيحة. ولما كانت دعوتها الى عموم الناس و ليس الوزير و قائد الجيش و مدير المخابرات و بقية القادرين على التملص من العقوبة فمن الواضح أن ذلك يقلل الى حد بعيد من أحتمال دخول الجريمة طرفاً في المعادلات المنفعة لأنها ستكون سلاحاً ذا حدين في يد الجميع: حد في يد (س) الذي هو طالب المنفعة و حد في يد (م. هـ. ن. ز....) من عامة الناس فيكون أن الحد المشترك بين طرفي أية معادلة يتم حذفه لاسيما في مجتمعات تتوفر بها وسائل حماية الذات و الأحتماء بالقانون و القضاء و التوسل بحرية العقيدة و النشر و الأحتجاج. ألا ترى ياسيدي أن جرجل كسب الحرب للشعب البريطاني و لكنه خسر الأنتخابات وهو في قمة مجمده و أنتصاره التأريخي؟ أو أن نيكسن خسر ذاته في شيئ تافه بعدما أنقذ الولايات المتحدة من معضلة فيتنام و فتح الباب بين بلاده و الصين؟ لقد سمعت مقولة تتردد من بريطانيا فحواها Smuggling doesn't pay أي أن أخفاء الدخل للخلاص من ضريبته شيئ غير مربح بسبب أنه يكلف أكثر مما يوفر من حيث أن أنظباط الحياة في هاتيك البلاد لا يتيح مجالاً هيناً للتحايل حتى أنهم أعتادوا الرضوخ للقوانين بلا تكلف و الأسئلة كثيرة و معروفة لا أزاحم وقتك بها. و تعرف مثلي حال النظام و القانون عندنا وفي العالم الثالث عموماً و كفى أن أقول أني رأيت المسلكين الذي لا ظهر له من الأقوياء أو من الرشوة ينتظر في الثمانينات سنتين حتى يأخذ طنين من الأسمنت على حين يحصل القوى المستغنى على مئات الأطنان في يومين و يجامله صديقه المحافظ في محافظة أخرى بمئات أخرى يبيعها بثمن خيالي، وهي عينات متواضعة جداً.. أن طيران عبدالكريم قاسم أختار وقت صلاة عيد الأضحى في أحدى القرى الكردية فقصف مسجدها مؤدياً بحياة 25–30 بريئاً بين برى الله و رأيت الطيارتين بعيني في ذهابهما و أيابهما من جهادهما المقدس ثم سمعنا بتفاصيل الفاجعة و قرأت في كتاب

أدموندس (الكرد والترك و العرب) أن بعضنا من قوات الجيش البريطاني آذت مسجداً في أطراف السليمانية لعدم تميزه عن بقية القرية فأحتاطت بعد ذلك برفع علمفوق بيت العبادة في أية قرية يدخلونها. وقرأت كيف يصف نهرو طريقة أعتقاله المهذبة أثناء سنوات نضاله خلاله الحكم الأنكليزي: و لتثق أني لم أشعر بالراحة في كيفية أستقبال الهند لملكة بريطانيا فما بلغني أن ضيفاً مهما عـلا شأنه بين الأمم و رسخت قدمه في صداقة الهند نال جزء من ذلك التكريم، وليس أنزعاجي ناشئاً من شيئ يخص الملكة فهي سيدة عالية السلوك لكن المفارقة منبعثة من عدم توقع ما جرى في المبالغة بأحتفاء شخص كان المظنون أنه آخر من يجرأ أن يزور الهند بعد قرون من أستعمار بلاده لها، فظهر إن للمسألة وجهاً آخر غير الذي يعلن عنه كذباً.

أمور كثيرة تجري في عالمنا تكشف عن عمق الهوة نحن فيها بدعوانا العريضة في المجد التليد و التأريخ المديد و الوطن السعيد و الحضارة التي دوخت التأريخ أذكر المفارقة في أثنين منها فقط، و غيرهما كثيراً تجاوزه: ولى المفارقتين ما جرى في ثورة تموز من سحب جثث بعض المقتولين يوم 14 و 16 منه فلقد كان تموز تلك السنة من أحر التمايز فيأتي النشامي من الشباب المتوثب، ورقة الأجداد الكرام العظام الفخام. في حر الظهر، يسحبون جثة دامية ممزقة ساعات و ساعات حتى يغمى على بعضهم فيسعف فيعاود السحب. و كانت الداهية أدهى من سحب جثة نوري السعيد فقد بقيت ليلة بكاملة تحت تراب القبر فذهبت الغيارى فنبشوا القبر في حماسة الضيع و أخرجوا الجثة المتورمة المتعفنة فسجوها و سحبوها حتى أعمق أعماق الكارثة الخلقية و الضراوة البهيمية و الأفلاس الحضاري. وقد قلت يومها: والله أن شاباً في عنفوان الأغتلام يحب فتاة من الفاتنات لا يحتمل أن يتمشى معها متأبطاً ذراعها في ظهيرة يومي 14 و 16 من تموز تلك السنة لمدة ساعتين فقط تحت لهيب الشمس في شارع السعد أو النحس فمن أين هبطت على أولئك الوطنيين هذه النفخة السماوية من القوة و الجلد في الدوام على عمل مضن مرهق مع جثة تعافها نفس الذئب؟ و الكارثة لا تتمثل بتفسخ و تمسخ الشر ذمة الساحبة للجنة – الجيفة و إنما تتمثل بما هو أوحش من أستحسان الجماهير العريضة غير المريضة للمنكر الذي تعاين و تعايش: أنها أمذح من قتل قابيل لهابيل.

و الثانية شيئ قرأته من حلقة من سلسلة مقالات للكاتب و النائب الوفدي إبراهيم طلعت نشرت في روز اليوسف بعنوان (أيام الوفد الأخيرة) أختصر القول فيه أنه عندما قدم المتهم إبراهيم عبدالهادي، من رؤساء الوزراء السعديني، الى محكمة الثورة و تقدم للدفاع عنه محاميان أحدهما كان وزيراً في وزارة المتهم فرفضت المحكمة مكالمته رغم إبرازه توثيقاً من نقابة المحامين بالأسكندرية يقول بجواز دفاعه وكالته عن المتهم فلما خرج رفع برقية الى محكمة يقول فيها أنه يرجوا أن ينال المتهم إبراهيم عبدالهادي من عدالة المحكمة ما ناله من عدالة المحكمة العسكرية الأنكليزية سنة 1920 وهو متهم بقتل ضابط أنجليزي فبرأته لعدم كفاية الأدلة.. هذه البرقية خنجر في صميم المواجع فقد كفى بالناس بؤساً أن يكون قصارى أملهم في أنصاف ثوارهم لهم أن يبلغوا في ذلك مبلغ العدو المحتل.. فمهما حاول المتأول أن يأتي بالمعاذير الملفقة لتخفيف قبح الصورة و فداحة المحنة فلن يكون ذلك منه أكثر من أضافة ضربات الفأس في تعميق القبر المحفور للحي...

"كفى بك داء أن ترى الموت شافياً"

هذه النماذج ليست شذوذاً من واقع مريع في عالمنا الثالث بعد الألف الذي ليس عالما ولا يحزنون فالمشهود أنه كلما خلا الجو من حاجز بين الحاكم و رعاياه زادت النكاية بأذاءها و جماعاتها الذين لا خيار لهم ولا أرادة. و ليس في قاموسهم السياسي حيز لمعتي أستعمال حرية الخيار ولا كان لذلك وجود في ماضي زمانهم ولا يشير الحاضر و المستقبل المتصور بمخاض محتمل لوليد جديد في طور التخلق. إذا قلبت أوراق الماضي صعوداً الى صدر الأسلام فلا تصادف غير صفحة واحدة سطرت فيها كلمة (الشورى) الواردة في القرأن الكريم حين جرح الخليفة عمر فأوصى (ستة الشورى) بأنتخاب خليفة من بينهم – يستثنى منه أبنه – خلال ثلاثة أيام فتشاوروا على النحو المعلوم..

تلك هي الشورى الوحيدة وهي على جلالة قدرها في تلك الفترة العصيبة هي (شورى القمة) لم يشارك فيها ولم يدع إليها حتى أهل المدينة حيث كانت الشورى.. صحيح أن تدبير الخليفة عمر وهو كمنقطع الأمل في الدنيا كان بعيداً عن الحرص ما بعده حرص على مصير دولة الأسلام و صحيح أيضاً إن موقف الإمام على في عدم تنازله عن رأيه لقاء الخلافة كان شموخاً هو أليق الأحياء به و أن إنكار عبدالرحمن بن عوف لذاته في الوصول الى تنصيب خليفة يجتمع المسلمون حوله شهامة و حصافة يذكرها التأريخ و لكن هذه و غيرها من مواقف الأفراد النبيلة لا تعنى (الشورى) ولا تسد مسد مشاركة العامة في بناء هيكل الحكم بأستعمال الخيار السياسي، و ما مبايعتهم للخليفة كلما كانت مبايعة الا تحصيل حاصل لأمر مثبوت فيه سلفاً. و يوم هبت الفتنة بمصرع الأمام عثمان فقد عبرت – الفتنة – عن نوع من أستعمال (الخيار) عدمه خير، ذلك أن المحرك فيها والداعي إليها ناس من ذوي الطمع و الطموح الشخصي أستغلت ثغرات في سلامة الحكم فتبعتهم غوغاء لم تكن تمثل مصلحة حقيقية فما نظن أن صاحب متجر أو صاحب قطيع أو زارع أرض تركوا معايشهم للبرار ركضاً وراء مشقة فيها طمع غير مضمون و فيها خطر غير موهوم, ولم ينهض الأسلام من محنة الفتنة أبداً و مهدت لسريان الأستبداد بمصرع الأمام علي لا نجد فيه عزاء غير اللطم على الحسين.. و أنزل مع التأريخ عبر القرون و على علات الأحوال و الظروف نجد أن البراكماتية المرذولة لا تسمح أبداً بالمهالك التي حدثت في سوح الإسلام خلال ثلاثة عشر قرن لا لأنها أجل و أكرم بسمو طبعها ولكن لسبب بسيط هو أن نهجها في تحقيق المصلحة الذاتية لا يقتصر على فتح الأمكانات بوجه الحكام فقط ولأن الغالبية الساحقة من مصالح الحكام لم تكن مصالح حقيقية بمفهوم البراكماتية و إنما كانت مهالك للعامة عموماً و لأغلب الخاصة خصوصاً. بل إن البراكماتية تستنكر ما حدث دون أن تتكلم لأن ما حدث على طرف النقيض لمنهجها فهي بمنطقها و بالعصر الذي ولدها وقد شاغب فيه وسائل التعبير عن الذات و رفض المكروه في ظل القوانين و الضمانات الدستورية لمقاومة التحكم هي منهج التباين الى المصلحة من خلال الفرص التي تسمح بها الحياة الأجتماعية المتحظرة الغنية بوسائل الكسب و الأعلان و الحماية و التجديد و الأقناع و الأبداع و التضليل و الهداية وما لايحضر من حيثيات هي بنت الحياة المتقدمة التي ترابطت أطرافها المتباعدة حتى تقاربت ة تساندت فصار الأخلال بأي مرفق فيها يعود ضرره على الجميع. فالبراكماتية كما أفهمها من قرآتي و منها النص المنقول آنفاً و الموسوعة البريطانية، إن كانت تهمل قواعد الخلق المجردة فهي تتمسك بضوابط الأمان و حماية المنفس و ممتلكاتها ة حقوقها بل هي نفسها تحمي هذه المضامين لأنها تخسر منافع كثيرة إذا عمت الفوضى و تعطلت المرافق و توقفت المصاعد و سكنت المياه في البيوت عن الجريان و أختلت أنظمة المرور و تجمدت أدمغة المخترعين و تقاعست الوظائف أو أرتشت و تعطبت أجهزة أرشاد الطائرات و السفن و القطارات، فلا أحد يضمن المنفعة لنفسه دون العالمين في غياب النظام و لنا تعلم كيف تعمل Works البراكماتية في أحوال نستشري فيها العصابات و يشبع القتل و الخطف و التفجير.

أنا لا أحّمل الأقوال و الأنفعال فوق ما تحمل فلا أزكى نية الذرائعي الذي يستبيح المنفعة من أي باب كان و لكن أستحالة المنفعة في أجواء الجريمة و باهظة الثمن الذي تطلبه تميل بالذرائعي من باب البديهة الى طلب سبل تساعد على المنفعة الرضية. أني لست براكماتياً و لكن أني قدراً من الأحساس بالمصلحة يجعلني أفضل براكماتياً مصلحياً غير مهووس على صيدي أين و بوكاسا و ستالين و أصحاب الثورة الثقافية و أكون بعد ذلك مدعواً بأستمرار الى مراقبة البراكماتي و المتحلل من التبعات و المتسلح بأسباب التفجير و الداعي الى الويل و البثور و المتوثب الى القوة و السلطان و العابث بالقوانين و بمقاييس الماء و الكهرباء و المرتشي و المتجبر و كل الأحناش و الأوباش و المعتزين بالأثم من أي جنس و دين و فلسفة من المنحرفين أجتماعياً و سياسياً و أقتصادياً و سلوكياً و حضارياً و... يّاً.. و ياً.. من الأوصاف المنتهية بالياء المشددة من هذا السياق فمن الواضح بل من البديهي إن غالبية الناس لم تستطيع قط أن تكون منتفعة من الألتواء و

ضياع المقاييس و فساد الضمائر ة فقدان الرشد فالجريمة وسيلة كسب الأقلية ولا تجد بين الناس من يطلب أماناً كما يطلبه صاحب سفينة محملة بالبضائع أو بشركات طيران كل واحدة من طائراتها بكذا مليون دولار في السنة أي 140 مليون دينار بعملة تلك الأيام و كانت ميزانية العراق أربعة ملايين دينار أي 35/1 من رواتب عمال شركة أمريكية واحدة. فإذا كان جميل المدفعي و ياسين الهاشمي أو نوري السعيد يخشى من حدوث أختلالات في كردستان أو عربستان أو لبنانستان و يحاول توفير الحلول ل.. هذه الأختلالات فأن المستر فورد شد خوفاً على ممتلكاته لأن الضر الذي يعيبه من الأخلال بالأحوال و القوانين يصيب شخصه ولا يصيب حكومة يرأسها. فالدعوة الى تحقيق منفعة ذاتية بتجريدها للوسائل من الأخلاقيات لا تنجر بالضرورة و لا في الأحتمال الراجح الى الفوضى و التذابح و الأستهانة بالأرواح و الأعراض ولا إلى مسح القوانين و الضوابط الرادعة كي تنطلق الرغبة الجامحة في الفرد و الجماعة إلى ما تشتهي لأن في ذلك نجد ذاته قتلاً لكل المصالح و حكماً بالتراجع في مراتب الأجتماع و تمهيداً لضياع جميع الضمانات التي تصون المشاريع المربحة جملة و تفصيلاً فالمجتمعات المتطورة التي تدعوا الى حرية التصرف و التعبير منظبطة إلى حد بعيد بطبيعة نموها التأريخي و ترابط مصالحها و توقف بعضها على بعض لاسيما بعد دخول العلم و التكنيك في تفاصيل الحياة اليومية فالوقوف عند حد المصلحة و الآخذ بمبدأ Live and let live و عناية المنتفعين من الحضارة بأحترام القوانين شيئ تفرضه و تحتمه (المصلحة الذاتية) و ما هو ترف روحي يمارسه المبشرون بالأخلاق الحميدة فأن ألف موعظة تغطى بالأمتناع من الأفساد و الأخلال لايكون لها أثر في خلق حرص لي على سلامة ورشة الفيترجي كما يكون لعطب يعتري سيارتي.. أني حين أرى مدنا مكتظة بعمارات من 50 و 80 و 100 طابق و حين وجدت في محطة فكتوريا بلندن 17 خطاً للقطار يخرج منه و يقدم عليه 34 قطاراً في كل نصف ساعة لا يمكن أن ينصرف ذهني الى كون الجريمة و الألتواء و الدجل و الشراهة أساساً لهذا البنيان.. يستحيل أن يكون علماء الأثار في هاتيك الدنيا صادقين في قراءة الهيروغليف و المسماري و كاذبين في دراساتهم الأنسانية بجامعة هارفارد و كامبريج.

ياسيدي سافرت يوم 10/ 3/ 1979 من بغداد الى أوروبا فنزلت في مطار فرانكفورت، و بعد خمسة أيام طرت من مطار كولون الى باريس و في يوم 18/ 3/ 1979 غادرت من مطار ديكول الى لندن و رجعت من لندن الى بغداد في أوائل نيسان 1979 فلم تفتح حقيبتي في أي واحد من مطاران أوروبا أعتماداً منهم على تأكيدي بأني لا أحمل ممنوعات و لكن مطار بغداد، صانه الله من عين الحسود، كان عند الظن به من تعمد الأزعاج و المبالغة في بعثرة الحاجيات و الحرص على تفهيم الناس بأن المواطن مهمل ولا قيمة له على الأطلاق.. إلا إذا كان قوياً بمركزه أو بظهره:

ترمي سيادتك أني أركن الى الواقع و ليس الى التنظيرات و التجريدات في تقويم الأحوال و الأحداث فليس يحلوا في المذاق أن المصيبة حلت من عشيدة تنتحلها الملائكة و لا يسقط من الأعتبار أن سلامة القافلة أمنتها فقرة بنص ديني للعفاريت، و لقد كتبت من آخر الأربعينات كلاماً في تبريرات الطلائع السياسية المنضلة لأخفاقاتهم، إنه خير للأنسان أن يعيش بلا تفسير من أن يموت موتاً مفسراً.

وما من تنظير في مرافق البشر و مهالكه و مقدساته و معلوماته يكون له سهم من الأهمية إذا عام في الفراغ منطقاً عن الواقع و التجربة فيا لغباء أناس من الغربيين يحتجون على أعدامات تجري في بعض البلدان بلا محاكمة فالمهتم الذي يعدم سريعاً في البلدان المعنية تكون رحمة الله قد تداركته خلافاً من ويلات التعذيب شهراً بعد شهر و عاماً بعد عام.... بلدان كثيرة تمشي الأمور فيها بالرشوة فإذا برز أحد المتعففين أثناء العمل في مشروع تقدم بالرشوة حتى قارب الأنتهاء يكون تعفف ذلك السيد قاتلاً للمشروع أو معيقاً خطيراً... محكوم بالأعدام وهو برئ خير له و للعدالة أن يتم إنقاذه بالرشوة فالعدالة كانت ميتة قبل ذلك.. هذه أمثال مرة و كريهة و لكنها حقائق بكل

أسف. ولا أكشف سراً إذا أقول أن أعداء أستقلال القضاء من ذوي السلطات هم رأس الفساد بالبلدان المتخلفة لآنهم المستفيدون الأوحدون من الرشوة و المصلحة المحمية بها أما سواء الناس من المتنازلين عن آدميتهم بفقدان خيارهم في الحياة العامة فلا وزن لهم مطلقاً.

و قلت في بعض كتبي إن الناس المتنازلين عن أرادتهم و خيارهم هم محكومون من جريمة التنازل هذه حكماً مؤبداً يدفعون غرامة فقدان آدميتهم بصورة مستمرة من حريتهم و كرامتهم و شرفهم وما لهم و حياتهم على حين يقضي السارق في السجن خمساً أو سبعاً من السنين يخرج بعدها الى النور. و من الواضح أن الأجهاز على العدالة بشكل المحاكم عن طريق دمج السلطات الثلاث في سلطة واحدة. هو أكثر الطرق للتحايل على شكل الواقع بزمانه و مكانه و أنسانه و حيوانه و دفعه الى حيث تتجع رغبة الحكام.

وقال رجل ذكي مات من نجو خمس عشرة سنة أن أصحاب الشعار الأشتراكي المنعزل في التأميم يأتون فيؤمنون البشر أولاً فيكون ماله و حلاله و حياته كلها مؤممة في طوع حكامه، و أقول منذ زمان بعيد إن أخطر ما في السياسة أن تجتمع القوة و المال في جهة واحدة و أضيف الآن إن الخطورة في ذلك تزداد بأزدياد التخلف فالمجتمع المتحضر و إن كان محكوماً بشخص واحد مثل هتلر لا يخدر الى قتل النظام و وأد الأقتصاد و تمريغ القضاء {محاكمات ديمتروف!} و القضاء على تماسك الجيش فالبنيان المتقدم في ألمانيا لم يكن منة من هتلر و إنما عبقرية الشعب الألماني في مختلف مراتبه.

جاء في أوائل العمود الأول ما يلي: أن مؤسسي هذه الفلسفة الرئيسيين هما وليم جيز و جون ديري و هي مشروحة في كتاباتهم المعروفة. و من التعابير الهامة التي تزيد من توضيح هذه الفلسفة هي أنها نوع من المثالية الذاتية و التي تؤكدان ذهننا هو الوحيد الموجود حقيقة أي أن العالم الطبيعي و الأجتماعي موجود فقط في أحاسيسنا و أفكارنا. و يعني ذلك عملياً أنه لايوجد مقياس موضوعي فوق أفكارنا و أحاسيسنا نقيس به ماهو خطأ أو صواب. فالخطأ و الصواب هو ما يتكون من أفكارنا نحن أيبسيط العبارات ما يتكون عندنا نحن و تلك هي نظرة الرأسمالية العالمية التي تبلورت في الولايات المتحدة. هذا الرأي في مجمله ناقشه علماء الأسلام منذ أكثر من ألف سنة مقتنعين فيها أثر فلاسفة اليونان فقالوا: حقائق الأشياء ثابتة و العلم بها متحقق خلافاً لفوفسطائية. و قالوا أيضاً ظان إدراك الحقيقة ممكن مالم يقم دونها عارض. و منه أو من جذوره يجيئ القول: أنا أفكر فإذاً أنا موجود.

أقول على البديهة إن الأنسان بطبيعة كونه مخلوقاً يفكر و يعقل و ليس كأجيال الآخرى منقاداً ألى الغريزة البسيطة التي لا تقارن ولا تقيم المقدمات ليستدل منها النتائج فيخطيئ فيها أو يصيب، هذا الأنسان في أصفى حالات تجرده من الحوافز و الروادع خليق أن يذهب مذهباً فيتحول عنه الى ما هو أقرب أو أبعد منه الى الصواب و يرى أفراده آراء متضادة في الأمر الواحد، و تأتي النسبية لتنفي أو تخلخل الثقة في ثبوت الحقائق المحسوسة وصفتها النهائية أو المطلقة سواء منها ما كان مادياً أو غير مادي و تنافسها نظرية الكوانتوم و تجاذيهما نظريات أخرى في الفيزياء تتفاوت في القول بالمطلق و النسبي في تفصيل لا نحتاجه وقد لا يخيط به و بدقائقه ولكن أشير الى وجود أراء علمية قوية تنفي أن تكون للمعادلات الفيزيائية نتائج حتمية و الغريب فيها أن الفيزيائيين الروس، على قدر ما قرأت، بمليون عن الحتمية الى الأحتمالية رغم أنهم يقولون بالحتمية في التأريخ الذي هو تصرف الانسان الذي قد يرفض أحسن الأشياء و يرضى بأحسنها و تتوزع عقائده و نظمه و مقدساته على أشد الأطراف تناقضا . صاحب النسبية يقول بالحتمية عموما و يقول إن الخالق لا يترك مصير خلقه إلى زهر الطاول و هو كلام جيد في حدود الإيمان بالله و نفي العبثية في الكون .

أما ان تكون الأشياء هي هذه الصورة الذهنية التي تتراءى للناس إنها الحقيقة فهو كلام صطحي خال من العمق الذي تطلبه حتى لعبة الداما فكيف بمذهلات الوجود . و تنقظه التجروبة اليومية مليارات المرات في مجموع تصرفات و تصورات كل البشر إذ تتباعد و تتناقض

اراؤهم في الشئ الواحد بعينه ، سواء في جوهره أو في صفاته بل أن الفرد الواحد يكتشف خطأه مرات و مرات في جملة الأشياء التي ينتهي فيها الى قناعة فهل إذا وجد في البعد شبحاً فظنه جاموساً سيبقى جاموساً إذا ترك النظر إليه فإذا أستعمل الناظور أو أقترب منه وجده كومة فحم فهو كومة فحم و إذا ظنه شخص آخر جملاً كان جملاً حقيقية فهو جمل و جاموس و كومة فحم في آن واحد!! هراء غير لذيذ.

لكن الكلام لا يستقيم فيه على هذه الشاكلة فالحقائق المادية الخاضعة للنظر و التجريب و كذلك القوانين الرياضية و ما إليها من ذوات البراهين يمكن التأكد منها و الركون إليها بتحكيم الأجهزة و القواعد المستعملة في أختبارها وقد أبتدع الذهن و العقل هذه الوسائل للتوصل بها الى الحقائق المادية و توظيفها في تحقيق المرغوب و المفيد أو في دفع الأذى و تسهيل الصعب و كلها أوصاف من جنس واحد يقع في الجانب الأيجابي لعمل هذه الوسائل، أما قضايا العدالة و الحق و الجمال و أرجحية هذا على ذاك من السلوك الأجتماعي و مواد القانون الوضعي و التجريدات عموماً فتلك أمور مجال الخلاق فيها واسع و عميق و بعبارة أخرى أن جميع الحيثيات المرتبطة بوجود البشر و تخمينه و ذوقه وأحساسه أي أن كل ماهو تلفيق أو تأليف أو قصور بشري يمكن أن يتناقض و يتحارب فيما بينه و لكنه مع ذلك يمكن أن تصدق فيه الأراء المتباينة أي أن تخلو هذه الآراء من نية الكذب. و تكاد هذه المقولة أن تكون بديهية إذا تصورنا تطور الملبوسات و الملاهي و تغير الرأي في القانون و الأقتصاد و السياسة (وفي الدين أيضاً) من جيل الى جيل في المجتمع الواحد و قد تتنافى كلها في المجتمع الواحد فقد بقى الأكراد مختلفين في الدين مع اليهود الساكنين في كردستان منذ ألفي سنة. و الدين يكاد يعمل كل أوجل مناحي الأجتماع. فالعقل البشري الذي يطور العجلة الى مركبة فضائية يكون قد مر بمراحل فكرية و عقائدية و أخلاقية غير معدودة آمن بصوابها في أوانها مع أحتمال أختلاف أفراده في هذا الأيمان و مع أختلاف موجود مؤكد يبلغ جد الأستنكار و الحرب في المرحلة الواحدة بين مجتمع و مجتمع أو بين مجتمع واحد في فئاته المختلفة.

وما قلته في الأشياء القابلة للقياس و التجريب و أمكان التوصل فيها الى الكنة كلام صحيح في ذاته و لكن تسليم الناس بصحة الصحيح غير حتمي فالكثرة الكاثرة من الجهلة ترفض التعليل الصائب لظواهر الكون ولم يزل فيهم من يرد الرعد الى ملاك و يعلل الزلزال بحركة الثور تحت الأرض و يفسر الخسوف و الكسوف بالحوتة و العفريتة. و الجهل لا يمنع من أتخاذ الجاهل مصداقاً أو تنفيذاً أو تعديلاً لآحدى النظريات فالذرائعية و غيرها لم توضح لفئة دون فئة فكل أنسان عاقل هو هذا ال (أنا) المقصود بالمنفعة البراكماتية. بل نستطيع من باب الأستغراق أن نأخذ المجانين من أنواع الجنون و القاصرين من مختلف الأعمار نمتحن بهم مدى أتساع الآراء للتطبيق ولقد رأينا مجانين و قاصرين مثابرين على فروض الدين.

ومن منظور أمتحان الأنسان في المسؤلية المآخوذة بنظر الأعتبار في الآراء و الفلسفات تدخل المرأة في نطاق خاص يغرزها عن الرجل، وفيما يلي أنقل سطوراً من الصفحة 97 من كتابي (من هموم الحياة) تتناول الأنسان من زاوية مناسبة لهذا المقام و فيها ذكر لدور المرأة أو شأنها في سياق الموضوع المطروق و أرجو ألا تضيق بطول ما أنقله فكل مسألة من نوع Controversial محتاجة الى الشرح الوافي:

"ويمكن قياس الفرد المعتاد الى الفرد المتسلط من حيث أنه هو أيضاً يستعمل قوته المحدودة في هدم ذاته وذوات الآخرين على قدر تفاهة عقله. ولابد من ملاحظة لاتخلو من وجاهة في حثيثه (التعقل والمصلحة) فالنعروف أن أوائل العمر حتى طور الشباب الناصح الناضج هي مرحلة سابقة على طور العقلانية و المصلحية فهي طفولة وحداثة و مراهقة خالية من مسؤلية الأنتاج و الأضافة و تحري الربح. و يكون طور الشباب الناضج هو مرحلة أجتماع القوة و الحصافة في الأنسان و تأتي بعدها بسنوات لا تتجاوز الثلاثين سنة {أي بعد الشباب الذي

هو ثلاثون سنة} مرحلة الكهولة التي فيها الحصافة بنقص شديد من القدرة فالعمر الذي يجمع القدرو و العقلانية هو ما يقع بين بدايات فجة و نهايات تضمحل بأفتراض خلوه من العقد و التشنجات و اللوثات و بأختزال ما فيه من هراء و عبث ما خلا منه عمر قط".

"وتضاف حقيقة أخرى هي أن (الأنثى) كانت في كثير من بلاد الله تعيش خارج المعادلات التي تقيم الفيلسوف عليها أحكانه التأريخية و الأجتماعية وهي مازالتكذلك في كثير من البلاد، أما كيف تستقيم الأمور عموماً بفضل هذا المتسع المحدود لإجتماع القوة و العقلانية (في الرجل) فأن جوابه أولاً و قبل كل شيئ هو أنها لم تستقم قط على حسب ماتقتضيه الفلسفات من أستجابة (الإنسان) لحوافز المصلحة فلا كل الناس يستجبون ولا كل الأستجابات مصلحية عقلانية و لكنها أستقامت في ماضي الزمان على وجه من الوجوه لأن الحياة و المعيشة كانت تطرد من يوم الى يوم دون أن تلتفت الى هموم الفلاسفة في أحتياجاتها الى حياة مبنية على مصلحة العقلانية كي تصوغ منها تسبباً عقلانياً لمجريات التأريخ، فالدنيا كانت تدور من ذاتها بلا تدبير نتقن..".

على أن مشكلة التطابق بين الحقيقة و التصور لا تنتهي هنا ولا كانت منتهية بالقدر المذكور في مقالتك و الكلام في ذلك يطول الى غير مدى منظور فلو تفرغنا لأستيفاء الكلام في المجال وهل هو موجود حقيقي غير مرتبط بمخيلة البشر في تسميتها الأشياء بالجميل و القبيح؟ هل أن جمال قوس القزح هو حقيقية مطلقة أم نسبية من نسبيات المواصفات و المقايسات البشرية؟ ما جمال الطعوم، وكيف يختلف الناس في جمال الأغاني الى حد التخالف؟ خلاصة القول هل للجمال معنى و كيفية و كمية من دون كائن بمواصفات البشر؟ وهل يتفق مع البشر في موضوع الجمال كائن عاقل من عالم آخر على بعد ألف سنة ضوئية مثلاً؟ وهكذا الى قائمة لا تنتهي من الأسئلة التي لا جواب عليها:

بشكل قاطع مع أنها أشكالات بسيطة الى جانب غيرها من المستغلقات...أننا لا نستطيع الجزم على أن مرارة الحنظل هي هذا الطعم الذي يعرفه فيه البشر؟ فأنن نعلم أن الألوان لا وجود لها في نظر البقر، لأنها مصابة بعمى الألوان ولو كان المصاب هو البشر لما نهضت مسألة الألوان أصلاً، و لكن يبقى جمال للقول بأن هذه المرارة قائمة بذاتها في كل الأحوال ولكن إدراكها شيئ أحتمالي أو (موجود بالقوة) و يكفي من تقريب هذه الصورة أن نذكر أن البشر يرى من حزم الضوء جزءً من عشرة ملايين جزء مماهو موجود منها في الطبيعة المكتشفة حتى يومنا هذا ولولا الآلات لما قام لها حساب في موجودات الدنيا. ومن هذه الحقيقة و غيرها يمكن أقامة أفتراضات لا نهاية لها مبنية على أحتمالات ممكنة في طبائع و أححوال الأشياء تختلط فيها الحقيقة بالأحتمالية فتختفي مسألة التطابق بين الواقع و التصور لضياع الواقع نفسه بين الأحتمالات.

لقد قلت أن الواقع الموضوعي موجود سواء شعرنا به أو لم نشعر بل سواء كنا موجودين لنحس به أو غير موجودين وقد خلقنا نحن من واقع كان موجوداً قبلنا بمليارات السنين. وكان البشر قديماً من عشرات ألوف السنين يعتمد في الغلب على حواسه و عقله للحكم بوجود الأشياء و عدمها و في طور لاحق بدأ في أبتداع وسائل للسير و الذرع و الوزن كانت في مستهلها بدائية ثم تطورت و كانت لحداثة تجربته من الوعي و إفتقاده وسائل فعالة للمعرفة ينشغل غالياً بالأشياء المحسوسة ولم يكن قادراً على التخيل الواعي لأسباب الظاهر فمن أين له السبيل الى تخيل سبب مفهوم لحدوث البرق أو هبوب الريح كما يفهم حدوث الطين من أختلاط الماء بالتراب فيضرب في اللجوء الى الغيب. وقلت في ذلك منذ نهاية الأربعينات قولاً نشر في جزء مهن أحد كتيبي المؤلف في الكردية بالسبعينات نصه كما يأتي "وليس قصارى العقل أن يمتنع عن تفسير الأشياء التي لا يفهمها و لكنه يفسرها تفسيرات خاطئة" فالغرائز في الحيوانات و في البشر لا تتعدى لتفسير الأشياء لذلك لا تملك البهيمة عقيدة ولا علماً ولا فناً فالعقل ميزة الأنسان العظمى و الفاصل الحقيقي بين الحيوان و بينه وهو يخطيئ و

يصيب و يقع في الضلال الذي لايمكن أن يقع فيها الحيوان الأعجم. و العقل الذي يدرك هو نفسه الذي لا يدرك فلا ثنائية في المسألة. و العقل هو الذي يطلب لغة يفصح بها عن مدركاته و مستغلقاته و بقيت له أصوات كالجمجمة و المولد و الصرير تعبر عن حالات الغريزة أو المزاج من غضب وحيرة و خوف و رجاء.. و العقل هو الذي يجعل للعمل صفة أجتماعية و تأريخية فما تقوله الماركسية من أن العمل خالق الأنسان كلام ناقص فلا بد من أنبثاق (العقل، الفهم، الوعي) أولاً لكي يكتسب العمل مظهراً أجتماعياً تأريخياً ولوداً و متغيراً الى الأحسن أو الأقبح ولو كان العمل هو كل شيئ لزم أن يصبح أغلب البهائم بشراً فكلها تعمل و كثير منها يبالغ في العمل و لكنها تظل بهيمة لا يعتريها تطور أجتماعي ولا عملها يتطور. و الواقع أن ألتجاء العقل الى التفسير الباطل للأشياء التي لا يفهمها هو بالأساس باب للأساطير يسنده فيها و يمهد إليها النفس بغموض إرهاحاتها و تحريكاتها و أظن أن العلم سيكشف تباعاً مصادر الأسطورة المكملة لضلال العقل. و يمكن العقل على أنه منبع الأساطير كون الحيوان الأعجم ليست له أساطير. و بشيئ من أنعام النظر تنكشف فداحة المصيبة في عدم تطابق القصور مع الواقع الموضوعي المتمثل في تكاثف طبقات فوق طبقات من ضباب الأساطير المغلفة لعقول عامة البشر من آلاف السنين حتى أن مليارات من البشر تعيش في أوهام خلقتها بدائية التفكير في أطواره الأولى.

هذا الذي قلته في صفة العقل من حيث طلبه لتفسير الأشياء يفتح الباب الى قول حاسم و خطير و نهائي:

فأنه مع علمنا بوجود عالم مادي قائم و عالم مادي سيقوم و يتغير و يتطور و ينمو و يضمحل {الأضمحلال يحصل لقوة الحيوية في الأحياء} سواء كنا موجودين نحن أم معدومين وهو موجود بتركيباته و قوانينه و مستلزماته و أحواله و كيفياته و كمياته و كل حيثياته التي ندفها و التي نجهاها و أننا نستعين في كشف غوامضه و أستكناه قوانينه و ثوابته و نواقصه و كل شيئ فيه بالآلات و الأجهزة العلمية المتطورة و التي ستتطور الى حد الأعجاز في زمان أت، فنحن في ختام رحلة المعرفة و الكشف نحتكم حتماً و جزماً الى فهم عقولنا لهذا العالم مباشرةً أو عن طريق الأجهزة أو الباراسايكولوجي أو أي طريق آخر للمعرفة و الأحساس بالأشياء فبأفتراض أن أحساسنا و علمنا و أجهزتنا و قوانا الخفية قد أخطأت من نقل الصورة الحقيقية للواقع الى أذهاننا فأنتفت بذلك المطابقة بينهما فنحن لا نملك إلا إأن ننقاد لفهمنا و إدراكنا و أحساسنا على علاقة. وليس فيما أقوله مثالية ذاتية و أنما هو واقعية لأفكاك منها فأنك تحتاج فهماً فوق فهم العقل و الأحساس و الآلات لتدرك الخطأ في شيئ يبدو في كل القياسات أنه الحق بتمامه أي أنك تحتاج الى بني أو روحاني من أهل اليوطا لكي يصحح خطأ الآلات و الإفهام و الأحاسيس و ليس ندراً أن يخطى النبي أو صاحب اليوطا فليسوا إلا بشراً حتى أنه يعزى الى النبي قوله في بعض شؤون الحياة: أنتم أعرف بأمور دنياكم.

و أنا إذا أستعين بهذه الصورة المبالغة في التحفظ ضد الخطأ أكون قد أهملت الواقع المعين المتسع للخطأ القريب المنال المصاحب لخطانا و المتكرر في كل آن بين مجتمع من مليون نسمة و مئة مليون نسمة، فالناس لا تحمل كومبيوترات لشراء البصل و الصابون حتى لا تحسب التفاح بصلاً و البطاطا صابوناً: إن حارساً ليلياً يرى شبحاً فيظنه خنزيراً ثم يكتشف بعد قتله أنه عجل جاره فلم يكن في سمة من أمره حتى يستعين بناظور ليلي لا يملكه.. سئق طائرة حربية يقرأ في راداره شبحاً يظنه طائرة معادية فليس يملك وقتاً للتثبت في صحة تشخيصه فتأخير ثانية قد يقتله.

ولو أحصيت عمل الأفراد و الجماعات و الحكومات و العصابات على مدى سنين فتصادف ناساً ينساقون الى التصرف عفو الخاطر فيما يتراآى لهم ولا يملكون طريقاً آخر يمشون فيه. والحالات التي يتسع فيها مجال الصبر و أنتظار نتيجة التجربة حالات نادرة إذا قيست الى حالات الناس المنتشرين على أديم الأرض سعياً وراء العيش و يعبدون الحجر رغم صراخ العلماء و زعيق البداهة أنه ليس إلاهاً. خلاصة

القول أننا أسرى الضرورة في الرضوخ لما يمليه علينا أحساساً و قوانا المدركة عموماً لأننا لا نملك غيرها سبيلاً الى الحقيقة ولا نملك خياراً في غيرها سبيلاً حتى ولو كنا مخدوعين و مضللين أو واقعين تحت تأثير قوة لا نفهمها. ولو نصبت على كل إنسان مرشداً لما أمنت من الوهم و الخطأ و نقص العلم و الفهم وقد يكون المرشد هو المخطئ، وفي المحصلة النهائية نجد أن الإذعان الطوعي لحكم فهمنا و أحساسنا الذاتي أو الآلاتي أسلم و أصح من المبالغة في تحاشي الخطأ من أجل التطابق بين التصور و الواقع فمن البديهي أن ما يضيع علينا من وقت و جهد و مال بالوقوع من الخطأ المعتاد أقل المنهج الصواب في الأستمثار و إن من نعتمد عليه لا يخوننا و إن الأحوال التي أعتمدناها لا تتغير و إن أرهاصات البورصة غير كاذبة.. أننا في كل الأحوال منتهون الى القناعة بصواب الفكرة التي نظنها متطابق مع الواقع فنمشي فيها الى حيث لا نستطيع التحكم بسبب تشابك الأفهام و الأرادات فيه.

وماذا فعل البشر أكثر من أتباعه طريق (التجربة و الخطأ)؟ولي في هذا المجال قول منشور أصحح به أو أسد ثغرة في مقولة مشهورة مضمونها أن البشر يتبع مصلحته، وهذه صيغة تصور تصرف الأنسان على أنه أحسن ما يقدر عليه و لكن أرى أن البشر (يتبع ماهو بنظره مصلحة) مادية كانت أو معنوية وسواء كانت مصلحة حقيقية أو موهومة أو مهلكة حقيقية و خطأ العمر كله فالبشر لايكون في سياق الحق إلا إذا توفرت له خصلتان نادرتان هما: الفهم النافي للخطأ و الأمانة المانعة من الألتواء، و لتعذر أجتماع هاتين الخصلتين تراه يعبد الحجر و البقر و الشجر و شيخ العقيدة و الطريقة و القائد السياسي و ترافولتا و عبدالحليم حافظ ليقين حقيقي أو مفتعل بأن معبوده جدير بالعبادة، إلا أنه في تظاهره المفتعل أعقل من المستعين المنخدع و لكنه أنتهازي. ولطالما كورت رأياً لي في أشياء يتم تقريرها بشكل نهائي و جازم، فلو أستطعت لجعلت الناس يستعيضون عن البشر بالكومبيوتر من مرحلة الحكم النهائي لأنه حصين ضد الخطأ بطبيعة تركيبه و ممتنع من الألتواء لأفتقاده العاطفة... على أ حال فأننا سواء كنا براكماتيين أومن عقيدة أخرى فلا نملك شعاعاً هادياً إلا ما يستوقده عقلنا من زيت المعلومات التي نراها صحيحة، بل أن القضية أشد أيغالاً في الذاتية فالبشر في آحاده الممتازين الموصوفين بالأمانة لا يقف عند نزاهة الآلات العلمية و دقتها في الحكم ليس فقط بسبب أن أموراً كثيرة مثل الرحمة و الشرف و الوطنية و المشاعر الأنسانية و التجريدات عموماً خارج تناول الآلات و تقديراتها فلو أجتمعت كل آلات الدنيا بتثمين الجمال في صورة أو تمثال أو حنان الأم لم تقدر على شئ لأنها لا تملك أحساساً بالعواطف ولا مقومات تثمين القيم المجردة، أقول ليس لهذا فقط و أنما لأنها قاصرة عن شفافية النفوس المرهفة المكتفية ذاتياً بالقدرة على الأستشعار. و كلامي يخص الواقع الراهن ولا أستبعد أن تبلغ الأجهزة العلمية المديات المفهومة من العبارات التالية المنقولة من مقالتي الموسومة (نحضن بميزة عن جبين الشجن)، قرأتها بندوة يوم 10/ 4/ 1986 و نشرت فيما بعد ضمن كتابي (من هموم الحياة) إذ تمضى فتقول: "بل أنها – أي المعرفة – ستتجاوز المعيقات كلها عبر الزمن الذي لا يعيقه شئ فإذا كانت العشرة من الآلاف – سنة – دون الكفاية لأنطلاقها الحر فإن لها في الزمن سعة المئة ألف و المليون سنة، بل أنها ستبلغ مديات من العمق و الأتساع و التسارع تتجاوز بها مفهومنا للزمن نفسه: أنها ستخلف وراءها سرعة الضوء فتسخر الزمن مطبة قد تبطئ حتى التلاشي و تسرع و تسرع حتى تخلف نفسها ظهرياً). و كنت قبلها قلت ما يلي في المقالة نفسها: ".. فقد يأتي ج... الغد بأبتكار وسيلة في طوايا المجهول تترجم أحاسيس البهم الى لغة مفهومة في قاموس البشر فليس بالمعرفة عسر هضم أو تصلب شريان كي تعيى بالمحسوس أو بالمفهوم أو بالمستخلص أو بالمستكنة أو بالمستشعر أو بالمستسر الذي يطلب ألف سنة من الفكر و النظر و التجريب. و ياليت أن للجماد مسحة روح أو لمسة حس تحتجب اليوم من فالق الذرة و مرتاد الفضاء فقد يطلع عليها في غد مرتاد الذرة و فالق الغضب، فيختصر به المسافة الفارقة بين المعرفة و المطلق الى حد الملامسة تأتي

بعدها الملابسة فالمعرفة مراح بلا أنتهاء، تنداح فيه أنسانية الأنسان على مقياس الأزل و الأبد زماناً و أستطالة البعد السحيق مكاناً لولاها لا نضم الأنسان في مثاقيل من اللحم و العظم يتعشمها دود الأرض".

والمقصود بالملابسة التلبس بالمادة و الحلول في جوهرها و طبيعتها داخل ذراتها وهي محصورة بالفيزياء لا تتعداها الى ملكوت الخالق لأختلاف الطبيعتين. فأنت ترى يا دكتور أن أيماني بقدرات البشر الظاهرة و الكامنة غير محدود بل هو أقوى من أيمان الملاحدة و أعمق و ينبع من صدوري الى تفهم الكون المادي كما هو وليس من باب رد الفعل الملحد ضد الخالق فأنا لا أتصدق على الأنسان بقابليات لا يملكها ولا أستعيد له قابليات صادرتها القدرة الكلية المعزوة للخالق و رؤيتي في ذلك غير معنية فلا تختلط عندي الذاتية بالموضوعية فكلتاهما موجودتان على وجه الأستقلال في مجاورة و تعاطٍ وأن تكن أحداهما تغلب الآخرى في موازين البشر حالاً بعد حال فالحقيقة فيهما باقية حتى لو قتل الجهل أو التسرع أو التحيز أحداهما أو كلتيهما.

وقلت في هذا المجال قبل الندوة بعشر سنين أن الأنسان ألا يملك إلا أن يكون ذاتياً حتى وهو يمارس العلم و الكشف و الأختراع فلا مهرب من أن تمر معلوماته و محسوساته ببوتقة عقله و وعيه – و نفسه أيضاً – فيقتنع بها فتكون جزء من معقولاته الواعية أو غير الواعية و قد يخيب في تقبل صحة المعلومات التي تصله فيرفضها رغم صحتها، بل إن الأمر أبعد من هذا ولوجاً في شكم الموضوع للذات فالمعلوم نفسها في مراحلها الأولى مشوبة بالنقص و الوهم فيعتنقها الأنسان على أنها أمور مقطوع بصحتها و كفى لذلك مثالاً أن علماءطابقوا بين سماوات القرآن و فلكيات بطليموس ليقينهم بتطابقهما و نعرف اليوم أن الفلكيات المذكورة باطلة. و هكذا فما يمر وقت حتى تتغير هياكل العلوم بمحتوياتها الى بديل جديد فيعتنقه مجدداً ثم يكتشف خطأه فيغيره، وفي كل المراحل هذه يظن أنه موضوعي متمسك بصحة الأشياء التي يؤمن بها و حقيقية أمره أنه مقتنع بما يعتقد أنه صحيح. و الكلام دائر في ناس لا يركبون رؤوسهم، خاضعين لحكم التجربة و إلا فالنماذج من المتعصبين و المتحيزين و الكارهين في العلوم و الآداب و الفنون أكثر من الهم على القلب. و العالم المنتسب الى جهة سياسية و المتذهب الداعية الى عقيدة و غيرهما من المتحيزين يسخر علمه حتى للخزعبلات في أي شئ يفيد جهة أنتسابه حتى أني قرأت لعلماء دينين من المغرب في الثلاثينات تفسيراً للقرآن يكفرون فيه كل شخص يقول بكروية الأرض فما بالك بمن يقول أنها تدور حول الشمس. و بحساب بسيط مع شئ من التمعن يظهر للبديهة أن الغالبية من سكان الأرض إذا أستطاعوا أن ينسخلوا من عقائدهم و يديولوجياتهم التي تستعبد ضمائرهم و وعيهم و نومهم فأنقذوا أرادتهم من القيود التي تكبلها لحساب غيرهم فأصبحوا أفراداً ينطبق عليهم وصف البراكماتية بما فيها من عيوب فتمسكوا بالـ (أنا) و ما ينفعه ضمن ضوابط الحضارة المانعة من قتل المنفعة بالحقارات و التفاهات المتكاثفة بإسراف في عالمنا الثالث يكونون حققوا لأنفسهم خيراً كثيراً و درأوا عنهم غبناً كثيراً و حازوا من الكرامة خطاً خطيراً فلا خير ولا كرامة ولا أمان ولا ضمان ولا أمل ولا نور ولا سرور في الأرتباط بسلاسل من القهر و التجهيل و الشعوذة الى هدى النفوس متسلطة لا ترعوي ولا ترتدع ولا تنقى ةلا تستحي.

ولكن ذلك يوم بعيد دونه عسر شديد وهلاك أكيد فالناس في عالمنا (كجحود الصخر...) ينحدر الى قعر الوادي السحيق لا يوقفه شئ دون الهاوية. لا البراكماتية ولا أي مذهب آخر يروج في العالم المتقدم يمكن أن يفيد في عالمنا نحن قبل أن يحدث تقدم حضاري في كل الوجهات ليتوفر مناخ يطلبه مذهب من المذاهب التي تبغى لنفسها تربة تنمو فيها ومناخاً يوافق حياتها و هواء تتنفسه رئة نظيفة، و إليك أسطراً في ختام كتابي (من هموم الحياة) ترسم رأيي في الموضوع:

"الديمقراطية نبات غريب عن تراب العالم الثالث لم يرسخ له جذر إلا كما يرسخ للأشنات جذر على بعض السطوح هنا و هنا لا يروق ولا يثمر ذلك إن التراب الذي ينمو فيه جذر الديمقراطية هو دخيلة النفوس و رديئة العقول و أنس الطباع و شبكة الأجتماعيات و الخلفية الحضارية، فالأوطان التي تفتقد هذه التقاوي لن تؤوي الديمقراطية ولو على سبيل الأستضافة لبعض الوقت. أنك مهما حاولت أن تنظر الى عالمنا وراء زجاج قوس قزح فلن يطالعك إلا منظر أسود بعضه بالمحروق و أحمر بعضه بالمسفوك. فإذا تسنى لقوة و همك أن تجد بصيصها يضئ بالتبشير فأني لم أجد شيئاً من ثمار حسن التدبير و حكم المنطق و دامية المصلحة و راحمة العدلة و إنما وجدت المصير موكولاً الى ذاته في تدحرجة نحو المستقبل بلا ضابط أو دليل فنحن فاقدون ما تملكه الأرض من أنشدادها بقوة الجذب الى الدوران المنظم حول الشمس فتدور في الفراغ أو غرق كالسهم المنطلق الى غير هدف"

"دنيانا جرح مفتوح بنزّ، لا طبيب ولا علاج و إنما قدرة الجسم الحي علة الشفاء من طبيعة تكوينه، و إحتمال الشفاؤ و الفناء مقسوم بينهما بنسبة خمسين الى خمسين."

و الواقع أن أنتحال بلد متأخر لأي أسلوب رائج في بلد متقدم لا يأتي بالنتيجة المرجوة أو المتوقعة لعدم وجود غذاء مساعد على الحياة يقتاته الأسلوب المتحضر ولا يفيدنا التظاهر بالتعالي على الأساليب (المستوردة) منى كالوسائل المشتهاة في تسهيل الصعب و تنعيم الخشن في مرافق حياتنا بالسيارة الفارهة و الثلاجة الرخيصة و الحاسبات السحرية و بقية المستوردات المادية الراقية التي لا ينالها منا الأمن كان من سكنة الغرف العالية و بأسعار لا تتحملها إلا جيوبهم المتخمة فكلها مضافاً إليها تشغيل المصنع و تنمية المال و عصرنة الزراعة من معدن واحد فليس من حكمة ولا مصلحة ولا ضرورة في تنمية الغرور القومي و الوطني و الديني بكيل اللعنة الى أساليبهم في التفكير و طرائق الحياة ثم الغرق في أحضان مصنوعاتهم و التحصن بحقد وفاتهم و التزود بجيوباتهم مستعينين عليها بضماناتهم لنا في البنوك. أقول هذا رأفة بأنفسنا و ليس بكاء على تعكر المزاج اللعين لحكامهم و قوارينهم.

ولو تحريت لما وجدت واحداً مثلي يمقت الجانب الغبن و المتعالي و القصير النظر من سيايات أمريكا بالذات و كفاني أن أستشهد في ذلك بوزير خارجيتهم دين أجين في كتابه Power and Diplomacy إذ يقول أن مشكلة الغرب هي في كون أمريكا قوية و غبية و كون بريطانيا ضعيفة و عاقلة، وما أضن أن أحداً يشجب جورج بوش كما أشجبه لأسباب خاصته بي نابعة من سياياته، و لتثق أني لا أبني حكمي على العاطفة و النزوع الذاتي و الأنسياق مع الهوى و كثيراً ما أقول كلاماً أنتزعه من الحقيقة فيكون متحديا للشعنور العام المخدوع أو الضال فأنك تقرأ لي كلاماً منشوراً في النسخة الدولية لجريدة الثورة، أقول فيه ما يعنى أن واجب المثقف المصري هو مصارحة شعبة بأن أستعادة سيناء لم تكن ممكنة إلا بالطريقة التي أستعيدت بها. و كتبت في واحدة من مقالات قصيرة لم تنشر ولا أظنها تنشر أن الماريشال بيتان الذي حوكم و جرم بالخيانة العظمى في محاكمات نورينبرغ بعد الحرب الكونية الثانية هو أكبر فرنسي وطني في هذا العصر في تفضيل لا أرى له مكاناً هنا و أقول فقط أنه منع الجيش الألماني من الوصول الى حدود أسبانيا ولو حصلها لدخلت الحرب فسقطت جبل طارق و أصبح الشمال الأفريقي مراحاً للسواستيكا و فرق البانزر و أستحال على الجيوش الحليفة النزول فيه سنة 1943 و أمتنع غزو صقلية و أيطاليا و وجب تبديل خطط الحرب كلها بما فيها النزول في نورماندي سنة 1944 ... الخ.

أرجع الى تطابق التصور مع الواقع بكلمة أظنها خطيرة في موضوعها فأقول أن الواقعية و الموضوعية نفسها بدعة بشرية نابعة من ذات البشر و تفكيره و إلا فالواقع الطبيعي لا يعي ذاته حتى يكون طرفاً في تحدي (الذاتية).

الطبيعة في ساحة الأفكار و المناقشات ماهي إلا (أمر واقع) فلا ينشأبها شئ أسمه تطابق الواقع مع.. مع ماذا أن لم يكن هناك بشر يلتزم الذات الموضوع أو يلتزم كليهما فينشأ بالبشر فقط ماهو ذاتي أو موضوعي أو ذاتي موضوعي. قصارى خطورة الموضوع أنه موجود ثم ينتهي دوره في التطور و التطوير النوعي حتى ينشأ كائن حي يتطور بايلوجيا و كائن عاقل، هو اليشر، يتطور بايلوجيا و أجتماعياً و يطور في المعنيين. منذ حوالي خمسة آلاف مليون سنة يدور العمر بحكم الجاذبية و القصور الذاتي و نوايس المادة الكونية التي لا أحيط بها ولم ينشأ به إلا همود مستديم ميت أشل، و الشمس قبلها كانت و مازالت أمراً واقعاً تنبعث الأشعة و الحرارة و غيرها بلا أرادة منها و الأحساس بها أو بذراتها و كذلك الكون المادي الأوسع الذي لم تنبعث فيه الحياة و النفس و العقل فأن آلف مليون مجرة لا تلفظ حرفاً ولا تنام ثانية ولا تكذب أو تصدق أو تغضب أو... أو... هي هي أمر واقع هامد إلا من طاقات مادية لا تعي فتعمل بحكم الدساتير الآلية المختومة {لا نناقش Pantheism – تأكيد الكون ولا أحتمال وجود وعي كوني لا يدرك}.

قد نقول أن الموضوعية رغم ذلك ستبقى سمة مميزة يختلف بها موقف الأنسان عنه وهو ذاتي وهذا صحيح ولا يراد له أن يكون غير صحيح ولكن ليس له أن يكشف الناحية الفاعلة و المؤثرة في الأنسان و هي ذاته و عقله و إرادته فأذا أفترضنا من باب زيادة التوضيح أن الأنسان صار موضوعياً كالكومبيوتر فنعقد ذاتية الفاعلة و المتفاعلة فلن تفيده موضوعيته في شئ مطلقاً شأنه شأن الآلات في موضوعيتها إذ يستوي عندها أن تكون معطوبة، غير معطوبة، تستعمل، تهمل، تلقى في البحر... أما إذا فقد موضوعيته، أعني الأنسان، فلا يعتريه الهمود بل يستعمل نشاطه بأنطلاقه من الضوابط و الكوابح وقد ينقلب في فهمه و شهوانيته الى حيوان كاسر إلا إذا كانت نفسه نفس ملاك أو متزنة في الأقل.

والأنسان في كثير من أحواله و صفاته ذاتي محض كما في كما في عبقريته و براعته الفنية و دوار المرتفعات و فوبيا الغرف المغلقة و ميوله السادية و المازوخية {لاداعي للتكثر من الأمثلة خوف الوقوع في خطأ الأنتقاء} بعبارة بسيطة أقول ليس غريباً غلبة الذاتية على الموضوعية في البشر لأسباب كثيرة جداً أحدهما كون الذات خالقة للموضوعية نفسها وهذه الجملة الأخيرة تعني أن الموضوعية قائمة بالبشر.

بعد الكلام المنقول في العمود الأول تأتي العبارة التالية: "إن هذه الفلسفة بالطبع ومن خلال أفكار آدم سميث في (ثروة الأمم) تفلسف وجود يد خفية تنسق أعمال الأفراد فتلائم بينها و تجعلها غير متضاربة فما هو مفيد لي مفيد للمجتمع و من مجموع الأعمال الناجمة المفيدة لي و للآخرين تتحقق مصلحة المجتمع و يحصل التقدم. هذا هو ملخص النظرية التي لا يصعب أبداً تشخيص المغالطة فيها و الخطأ الفادح فيها..".

أقول في ملاحظة عابرة و بداهة عفوية دون أن أربطهما بصلب المناقشة الأحادية هذه أن ما جرى و يجري في السوق و حلبات التعامل في دنيانا التي نعرفها، من ألف ة ألفين و ثلاثة آلاف سنة، هو هذا الشيئ البسيط الذي عبرت عنه السطور السابقة في طواعية طفولية. هذه البساطة و السذاجة و العفوية مفهومة من حقيقة كون ملايين المتعاملين في المنافع و التجارات و المساومات أنسابت مع الزمن في يسر و موادعة من جيل الى جيل دون أن تكون أستدعت أستعمال العنف و التخويف و المناجزة في منحاها العالم و إلا لما بقيت سوق واحدة سليمة لمدة شهر واحد في أي من مراكز الأقتصاد لاسيما الكبير منها، في بغداد و القاهرة أو في جندة و البندقية. هذه العفوية في سلامة التعامل بالأسواق و عبر طرق المواصلات البدائية يتجلى بروعتها التامة في تناقفها مع شذوذ الشطار و العيارين و قطاع الطرق و اللصوص و القراصنة و الحكام الطغاة و كانت سارية بطبيعتها البسيطة في طلب الأمان و الثقة و سلامة التعامل و سير الحركة و شرف

الوعد دون داع الى أستعارة يد خفية أو تصور دواع تدق على الأفهام لدوامها و نجاحها و كفالتها بأستمرار الحياة و الحضارة و تواتر الدفقات النشطة من العمليات في مخاضات الأخذ و العطاء المتجهة دوماً نحو النماء المتصاعد فهذه سمة و طبيعة تكوين الطبقة الوسطى و ليس لها طبع آخر يرحب بما ينقضها و يضيق عليها و بحرفها الى غير وجهتها.

هذه البساطة نفسها تفسر كيف تصبح المداخلات الفجة من قبل أصحاب النظريات المقتسرة المبترة و آيديولوجيات الأحزاب الطليعية!!! الفارضة نفسها على الحياة العامة بسطحية مهلكة و عنفوان مرعب، تصبح معيقات بلى قاتلات للتحول المحتوم الى ماهو Transmogrification حقيقي غير مفتعل وصحي و مطلوب و تحصيل حاصل ومن طبائع الأشياء و بديهيات الأمور و حاضن للعلوم و الفنون و المهارات و الكشوف رغم أنف المتزمت و المعطل و المدجل ولم تكن قط بحاجة الى تفسير ماركسي لينيني عن طريق تحول الكم الى الالكيف و نقض النقض و ما تفرع فيه من طرق أجتهاد لم يتنزه واحد منها من القهر و فرض الذات و سد مجرى الجدول أيها الرفيق سعدون حمادي.. أتجاوز هذه الملحوظة لأنها تأخذنا الى حيث لا أجد له نهاية ملحوظة.

أنا لم أقرأ كتاب آدم سميث ولا أستكنه قصده من (يد خفية) ولكني أميل الى تفسيلا ذلك بما قلته من أستدعاء المصلحة العامة المشتركة لمجمة ع العاملين في الأقتصاد و المعيشة أن يشيع الأمان و يسود القانون و يختفي الألتواء و يمتنع التحكم. و بفرض أن قصده هو شئ آخر يخفي علي فلابد أن تكون حصيلة كلامه مفهومة في سياق ما قلته وإلا من أين نأتي بتفسير هذا الفخم الضخم المذهل من قوة الأقتصاد في الدول الآخذة بالأقتصاد المنفتح ولاسيما في في الأقتصاد الأمريكي حتى أن الدولار أصبح أسطورة بثمن بها سعر غالب الأشياء بما فيها الضمائر و المصائر. و أعذرني إذ أستعين بمثال برئ في غير السياسة و الأقتصاد مدخلاً الى عدم واقعيتنا في تحديد الأشياء و تسميتها بأسمائها فنحن نسرع دوياً و تنويها و تقديساً يحيط بذكر عباس أبن فرناس فننصبه – أو تنصبونه – رائداً أول للطيران على حين لم يكن إلا خيالياً منقطعاً عن الحقائق الفيزيائية فشل في النزول بسلامة من أرتفاع بضعة أمتار فلا هو رائد ولا تصح نسيته الى الطيران فما قصد غير الهبوط فأخفق فيه و خرج منه بعصعص غير سليم.. دافنشي كان خليقاً أن يكون له أسم في هذا الباب رغم عدم محاولته الفعلية فقد توسل بالأسباب الدالة على فهمه لطبيعة الطيران و لكن لا يذكر أسمه لعدم جدواه في الأعلام.

ثم نجد أن الأمريكان في زماننا هم أول من أنزل أنساناً على سطح القمر و لمسنا في طريقة حربهم بأم المعارك و أبيها. لا ساغت في لهاتهم، يزاولون شيئاً أشبه بعمل من يدير المفاتيح و الأزرار في لوحة التلفونات و ركب الزغب الروس إذ تبينوا تخلف سلاحهم فهل يفيدني أن أغرض عيني عن الحقيقة و تسلية ذاتي بأستشراء الفساد فيهم و تفشي الفقر فيما لا أدري من مرافقهم و ظلمهم للسود و الهنود على حين أن عالمنا الثالث له نصيب يفوق الأنصبة في أي خطب يذكر فالفقر و الحمدلله الذي لا يحمد على مكروه سواه تراث أزلي لصيق لم يفد في نزعه حتى النفط.

و تذابح أبناء الوطن الواحد و تحارب شعوبه المجاورة يبعث على القرف و كفاك أن عدد القتلى من المقاومة الفلسطينية عند طردهم من سورية يضاهي عدد من قتل منهم بيد اليهود و كفاك أن أيلول الأسود لطخة في جباة من هموا بقتل الملك حسين و سأقول ذلك حتى بغرض أن الملك حسين أنقلب على العراق و كفاك بعد ذلك أن مظاهرة تقوم بغير رضا السلطة في أي من بلدان العالم الثالث تكلف ضحايا هي أكثر مما تكلفه حرب الحجارة في الأرض المحتلة. إلا فأحب لنفسك كم من دم الأخوان المواطنين سفك بيد مواطنيهم أو مجاوريهم من دين واحد منذ ثورة 23/ يوليو / 1952 و 14 تموز 1958 و ألتفت الى ضحايا عيدي أمين و (محرري!) الصومال و ملائكة الرحمة (الأميين) في الحبشة و الى النزهة التي قام بها شيوعيو عدن و أذكر حال لبنان و أفغانستان و أذكر و أذكر كما أذكر أنا فتركبني الفجيعة

حتى تشل أحاسيسي و أتوارى من المشهد بمثل شعور الخجلان من نفسه ينسيني حال السود و الحمر في أمريكا. أم يقال أن الذنب في ذلك يرتد على أمريكا و الدول الصناعية الكبرى؟ فبأفتراض أن ذلك صحيح و بتجاوز لوم الذات في سرعة أستجابتنا الى هدم الذات فأني بعد المقارنات و المقايسات و تحديد المسؤليات أصل الى مايلي:

أني سأزدري الدول القوية إذا أستنكفت من التلاعب بنا مادام حكام العالم الثالث لا يتورعون عن القيام بشّر الأعمال الوحشية مع شعوبهم و جيرانهم على قدر الطاقة إبتزازاً لمنفعة أو أزدهاء بالقدرة على القهر. ة تدلهم الصورة أكثر أكثر كلما أدمت فكري في شلل الإدارة بل فقدانها عند شعوب العالم الثالث فتنقاد كضحايا العيد الى سكين جلادهما أجنبياً كان ذلك الجلاد أم من أهل البيت.

و أقول (شعوب العالم الثالث) جرياً مع الأعتياد وإلا فأن المجموعات البشرية التي تنقلب الى قطعان بلا إرادة هي مجموعات بشر و ليست شعوباً فالشعوب لها خصائص و نضامين أخطرها أثنان: الشعور بالواجب و الشعور بالحق. و قدمت الشعور بالواجب لأنه إذا تحقق صار حق الآخرين تحصيل حاصل فهو مضمون في قيام الناس بواجبهم و أول واجب هو عدم الأعتداء على الحقوق. أما أن هذين الشعورين من الأطايب المتعسرة فذلك لا يغير من النواقع المصيري شيئاً فلا أمل للناس في الأمانة و الكرامة حتى يتحقق هذان المتعسران و لا يترك الحاكم و المتسلط عموماً طمعه و شهوته الى اليوم الذي يمتنع فيه الناس على شهواته.

حكاية السود و الهنود الحمر ليست مشهية ولا مسلية ولا مشرفة وهي الى حدما من جنس الحكايات الرائجة في عالمنا الثالث و لكن لها تفاصيل لا يستغنى عن دلالاتها.

الهنود الحمر ينتصب فوقهم علامة أستفهام لم أجد أحداً أجابني عليه فالمعروف أن الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية و الوسطى مضافاً اليهما المكسيك كانت لهم حكومات و مدن و نظام قبل أكتشافها و لقرون مضت حتى أن نظام البريد الرسمي عند الأنكا Inca بما فيه من وسيلة الأشرطة المعقدة في نقل الخبر شئ مذهل.

مدينة كوزكو و كوجابابا و غيرهما كانت مدناً حقيقية و قرأت في كتاب Gods Goaves and Scholars إن التقويم السنوي للأذتيك كان أدق من التقويم الجريجوري. ثم أنهم أختلطوا مع الأوروبيين بالمعايشة و التزاوج فنشأ منهم خلاسيون يسمونهم Mestizo ونسبتهم العددية الى جميع السكان عالية. لكن الهنود الحمر شمالي المكسيك فيما هو اليوم U. S. A. و كندا لم يتجازوزوا طور القبلية فلم تكن لهم حكومات ولم ينشئوا مدناً رغم وفرة الأسباب للأزدهار ولم يختلطوا بالأوروبيين. و لربما كان القسوة المستعملة مع هنود الأزتيك و الأنكا أشد مما أستعمل مع هنود الشمال ولكن النتيجة كانت عكس ما هو متصور من حيث الأختلاط و التزاوج.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن الذي حصل من المواجهات و المعارك في الأمريكيتين بين الأوروبيين و الهنود كان من قبيل ما يحدث بين المهاجرين و المقيمين من قبائل الدنيا القديمة و شعوبها أي أن غالبيتها، لا سيما في القسم الشمالي من أمريكا كانت تحدث بلا تدخل حكومي إذ لم توجد في الشمال حكومة هندية ولا رسخت حكومة أوروبية في الأمريكيتين بوقت قريب. و أرى من باب المقارنة أن الغزوات التي كانت تحدث بين القبائل العربية أتخذت لأول مرة شكلاً منظماً بعد قيام الدولة الأسلامية ليس فقط في تجيش الجيوش لمهاجمة الفرس و الرومان بل حتى في المواجهات التي حدثت ببدر و أحد و جنين و غيرها مع المرتدين و اليهود. فإذا صعدنا الى آلألف الثاني قبل الميلاد وما قبله وجدنا العرب كغيرهم من القبائل المترحلة (مثل القبائل الهندية – الأوروبية) تغزو الديار بلا تدبير أو منهج أو هدف بعيد و تجد الآشوريين متضايقين من العرب و لكن بدرجة أخف من ضيقهم بالميديين في مفتح الألف الأول ق. م حتى سقوط دولتهم في 612 ق. م.

الخلاصة أن محنة الهنود الحمر ليست بدعة أمريكية أو فنزويلية بل أن حروب القبائل الهندية فيما بينها وأستعمال بعضهم لبعض في أمريكا الجنوبية قديمة و سابقة على أكتشاف أمريكا و نزوح الناس إليها من أوروبا أولاً و من غيرها أيضاً فيما بعد. و الملحوظ كذلك أن صلة الأوروبيين بغير الهنود الحمر من سكان جزر المحيطين الأطلسي و الهادئ لم تكن مصحوبة بتلك القسوة رغم أن العنصر الغازي في الحالتين هو واحد. و السبب الظاهر هو أعتدال رد الفعل لدى سكان الجزر من أقبال الأوروبيين عليهم، و قد تكون له أسباب أخرى لاعلم لي بها. ومهما يكن الكلام مؤلماً فلا بد من قوله الحق.

فقد قرأت فيما قرأت من أبناء فتوح شمال أفريقيا ن موسى بن نصير رجع في أحدى غزواته بسبعين ألف أنثى يشتهيها الفاتح أو يتاجر بهن النخاس فما هو المتبقي من سكان تلك الديار لدعوتهم الى دين الحق.. الأمويون يغزون قبرص فينكلفون بأهلها تنكيلاً يقشعر منه البدن. و نقرأ فيما نقرأ أن إعتداء أبي لؤلؤة على حياة الخليفة عمر كان ثأراً منه لفتح نهاوند الذي تم حرباً فقتل من قتل من سكانها و سبق الباقون سبياً الى المدينة و كان أبو لؤلؤة نهاوندياً أسره الروح في بعض حروبهم ثم باعوه لبعض العرب. فالفتوح و حياة التنقل البدوي سواء في الدنيا القديمة أو الحديثة كلها دموية خالية من الرحمة بشيئ من التفاوت هنا و هنا وبأختلاف الأسباب من أكتساح الى أكتساح. و بأفتراض أن عربياً أكتشف أمريكا فهاجر اليها العرب فما عساهم كانوا يفعلون بهم إلا القمع! و إذا كان الفارسي الزرادشتي عومل معاملة أهل الكتاب فيما عدا الزواج من نسائهم ومع ذلك هاجر كثيرون منهم الى الهند و الصين وما وراء النهر هرباً من الموت و أحتفاضاً بدينهم و بشئ مما تبقى من كتبهم فماذا يكون موقف العربي المسلم من الهنود الحمر الوثنين غير المتحضرين قبل ألف و أربعمئة سنة تذكر الكتب أن قسوة الأسبان مع الأزتيك كانت في أحد أسبابها تعود الى أن ضمهم كان شبيهاً بالشيطان في عين الأوروبي.

قرأت منذ أيام لكاتب عربي أنه بعد نزوح العرب من الأندلس غلبها البرابرة من سكانها الأصليين مع أن الأنسان مهما يكن شأنه هو أولى بداره، يضاف الى ذلك أن الأسبانيين أكثر راحة و دعة من العرب في أيامنا هذه بل من عامة المسلمين. على أي حال أن الرجوع الى دفاتر الماضي و الأحتكام الى أحداثه في ميدان الضراوة و القهر يأتينا بنتيجة واحدة هي الحزاب و ضياع الأنسانية و أبتعاد الأمل في السلام و أن مقدار العنف فيها يتناسب مع مقدار التخلف. و بصدد أستعمار الأمريكيتين لابد من الأشارةالى حقيقة أن الأنجليز لم ينووا البقاء في أي بلد هو بنظرهم من الدنيا المتحضرة فتركوا الهند و العراق و مصر و السودان و كل مستعمراتهم التي هي من هذا القبيل و لكنهم بقوا حيث كانت الأرض مسكونة من قبل غير المكتحضرين فمكثوا في أمريكا و أستراليا و نيوزلندة و أجزاء من أفريقيا. زمن ملاحظات غراهام غرين أن الأنجليزي لا يختلط بأهل البلد الذي يستعمره أو يحتله و أنما يعيش في عزلة من الناس على عكس الفرنسي في حبه للمغالطة.

ومن أمثلة هذه السجد الفرنسية وجود مليون مستوطن فرنسي في الجزائرفلولا أصرار الجنرال ديكول لتعذر حل مشكلة الجزائر لأسباب منها مشكلة المستوطنين. ومن الملحوظ إن الفتوح كانت تقع قديماً بهدف أحتلال الأرض الثرية المسكونة سواء كان الهدف دينياً أو دنيوياً و يستوي فيها العرب و العجم و الديلم فما أحد منهم كان يتكلف العبث في أحتلال بلاد بلا بشر وما جاءت أستباحة السيي إلا مكافأة للذات على المشقة.

بصدد حصر الهنود في المستوطنات: لست مستيقنا مما إذا كان ذلك برغبة الهنود أم برغبة الحكومات أم من حكم الضرورات. ثم أن المجتمعات الحديثة تعتني بالحيوانات و تبذل الجهد و المال لمنع أنقراض أجناسها فهل تنساق ضد طبعها في موضوع الهنود الحمر؟ على أي حال إن هذه المستوطانات أصبحت مثلاً يحتذي بأحداث مايسمى (مجمعات) و لعراقنا الحبيب نصيب غير منكور في ذلك و الأعذار في هذا الصدد تختلف ولكن العملية و نتائجها واحدة.

أما مسألة السود فهي ذات عرض و طول أكثر أتساعاً من مسألة الهنود الحمر:

نشأت مشكلة السود في أمريكا كما نشأت في العهد العباسي متمثلة في ثورة الزنج بفضل النخاسين المسلمة الذين كلنوا يصطادون أو يبتاعون السود و يبيعونهم للناس حيثما كانوا محتاجين الى خدمة رخيصة. و الملحوض أن أوروبا خلت من العبيد السود لأستقرارها الأجتماعي على نبذ مبدأ الأسترقاق. و الروايات التأريخية ما بين تصريح و تلميح تقول أن ثورة بابك الخزمي كانت من حيث المنشأ حركة ضد أستثمار الأرض ئاذربايجان من قبل الحكام وذوي المال و السلطان المسلمين بأستعمال العبيد في الزراعة. ومن الملاحظات الجديرة بالأعتبار أن السود في أمريكا تحرروا بفضل الشماليين لا بحركة ذاتية من السود وما من شك في أن المنافاة قائمة بين عامة الناس من البيض و السود و ليس بين السود و الحكومات وهي مائلة الى الخفة و قطعت في ذلك مديات.. أذكر شيئاً قرأته في كتاب Incide Africa ككنتر حول جدار اللون بين البيض و السود في أفريقيا فيقول إن سيدة أوروبية محترمة قالت في حفلة ساهرة بالزبري – كما أتذكر – إن المشكل ليس Color bar بقدرما هو W. C .bar فالأوروبي يستعمله كما يجب و الهندي يتقرفص عليه بحذائه و الأفريقي يتمرحض في أرض الغرفة.

و لهذا الكلام مقدار كبير من الصحة ولا يفيد أنكاره إلا في الأعلام فقد عاشرت الفلاح الكردي لأكثر من عشرين سنة و آكلته و صاحبته بلا تقزز وبما لا ينكر من متعة ولكن واثق أن سيادتك و الأكثرية الساحقة من متنعمي المدن لا تحتملون الفلاح في بيوتكم العصرية ليس من باب الترفع و إنما لأختلاف نوع التصرف و لعدم أعتياد الفلاح طريقة أهل المدن في المعيشة. رأيت الفلاح في بيتي بكويسنجق يقرك السيجارة بأرض الغرفة ليطفئها كما يفعل في بيته بالقرية ولم يلتفت الى النفاضة بجانبه، و رأيت يبصق و البصاق لا يجف سريعاً على غير التراب. والغطاء الذي يستعمله شتاء في نومه الليل لا يمكن لساكن المدينة أن يستعمله إلا بعد نشره في الشمس و الهواء تخلصاً مما حل فيه من حشرات معلومة.. وتحملته في أمور أخرى كثيرة: أحدهم كسر المغسل داخل بيتي ببغداد وهو يغسل فيه قدمه للسوء، و المجرب يعرف متاعب إعادة نصب المغسل و كيف ينتشر ماء الحنفية المنزوعة بلا توقف.. عندما أتخذت أيواء أهل القرى التي تغمرها مياه سدد مكان في أواسط الخمسينات جلبت أنتباه ذوي الشأن الرسميين أن يتركوا أرض الغرف و الممرات و باحات البيوت بلا رصف أو أسمنت لأن التراب قادر على أمتصاص طراوة الفضلات الحيوانية و البشرية التي لا يخلوا منها بيت الفلاح فلم يستوعبوا:

لكن الفلاحين بنوا لأنفسهم، ولبهائهم خاصة، و دواجنهم أكواخاً لصق البيت و داخل باحته بأرضية ترابية و نعم مافعلوا. أنالا أفرق بين الأسود و الأبيض و الأحمر و الأصفر ولا بين المسلكين و القوى و أعتبر الناس سواسية و أدين الى تميز متعال من الأبيض لغيره ومن الحزبي لغير الحزبي ومن الوزير للفراش {أجلست سائق سيارتي الرسمية معي على مائدة الطعام} ولكن سلوكي لا يحمل الأشكال و يظل القوى المنفوخ يتعالى على الضعيف و يتمايز الناس بالمال و أجاه و المركز الوظيفي و الصفات الجسدية و الذهنية و ينتحلون الأنتساب الى الأنبياء و الخلفاء و الأولياء و رأينا في صدر الأسلام أصرار المهاجرين على حصر الخلافة بقريش ثم كان من الشيعة أن خصوا الأمامة بالأمام علي و أولاده من فاطمة الزهراء. ومن المذاهب ما يجعل غير العربي مرجوحاًفي الزواج بالعربي رغم أية (أن أكرمكم عند الله أتقاكم) و شاع أن لسان أهل الجنة عربي مع أن اللسان العربي لم يغلب لغة الشعوب إلا ماكان لسانها من عائلة العربية فما واحد من شعوب أوروبا أو العائلة الإيرانية و التركية و الهندية أستطاع تبديل لسانه بالعربية على حين صار القبطي و النوبي و الآرامي و السرياني.. ألخ عرباً باللسان في أغلب الحالات.

وكان لبعض تلك الشعوب المحتفظة بلسانها، كالكرد، نصيب في محاربة الصليبيين يفوق نصيب العرب في أحوال كثيرة حتى أن خليفة بغداد لم يؤازر صلاح الدين الأيوبي بدينار أو جندي واحد. وأخيراً بعد أستقلال سورية كوفئ أكرادها بالتعريب و بالطرد من دارهم فرأيت منهم جماعات ببيروت سنة 1971 حصلوا على سكن ينامون فيه ليلاً بحيلة لطيفة من المرحوم كمال جنبلاط الكردي الأصل إذ أعتبرهم أثناء ماكان وزيراً للداخلية أنهم دخلوا لبنان بلا سمة دخول فحق عليهم السجن فيؤويهم بالليل في السجون و يطلقهم أثناء النهار ليعيشوا.

الخلاصة و بالرجوع الى قصة السود، أقول أن مكانة العبيد عامة و السود منهم خاصة كانت بحكم الأعراف و بحكم نقص الأهلية منخفضة و مضنية وشار الأشكال عبر التأريخ فالمتنبي ما وجد عاراً بعيب به كافور الأخشيدي أشد من كونه بالأصل عبداً أسود. فإذا كان سواد الجلد أثار في أمريكا مشكلة أجتماعية و قانونية فلا يفوتنا أن نلاحظ فيها علامتين بارزتين: أولاهما ما قلت من أن النخاسة هي المسؤلة أصلاً عن قيام المشكلة على حسب معلوماتي.

و الثانية أن المسألة صارت هناك مشكلة أجتماعية و قانونية ولم تصر عندنا مشكلة رغم قدم عبودية السود في دنيا المسلمين و ذلك بسبب تفاوت المعايير فيما هو صحيح و خطأ أجتماعياً في العالمين فقد وجدنا البيض في الشمال الأمريكي يرفعون شعار تحرير العبيد في الجنوب على حين وجدنا البيض يسحقون ثورة الزنج في العهد العباسي حتى لم تقم لهم قائمة لكن مشكلة السود أستمرت في أمريكا رغم تقدم شأنهم و شيوع مشاركتهم في الحياة العامة و بروز المشاهير بينهم في الدين و الفنون و العلوم و الرياضيات و الوظائف فالقضية عندهم تستمد حكومات دوامها من جذرها التأريخي المتمثل في قيام مصالح الجنوبيين منذ زمان مديد على مبدأ التفاوت و بقاء الرق و من أنفتاح المجال أمام السود و غيرهم من كل ملة و نحلة كي تعبر عن ذاتها بما في ذلك الأعلان عن الدعوة الى أباحة الجنس و المخدرات على حين نجد في آسيا و أفريقيا أنه حتى الدعوة القائمة على أساس العقيدة الدينية تلقى ردود فعل شديدة من السلطات إذا آمنت منها قوة، فالديمقراطية و الآراء الأقتصادية و العقيدة الدينية و القصص بأنواعها كلها محظورات عندنا إذا برزت بشكل يتوجس منه الحاكم الذي جاء ليبقى. لقد أغتيل زعيم سياسي ديني أسود في أمريكا فقالت له الدنيا ولم تقعد على حين أعدمت السلطة في مصر (سيد قطب) وهو بمقام غزالي صغير على أيامنا فلم يحدث شئ ومرا أعدامه بسلام ولم ينشأ منه أشكال كما حدث في منع الذبح ثلاثة أيام في الأسبوع بدلاً من يومين... عريف في الجيش السوداني أغتيل في الجنوب من نحو عشرين سنة فكان الثأر له الفاً و خمسمئة قتيل من السوء الوثنيين على ما قرأته من بعض صحف هذه الدنيا.. وما أظن أن عربياً له شأن أستنكر الحادث بل أنه كان موضع ترحيب من قبل غلاة الوحدويين العرب فأين الذرائعية و السوادية و الهنداوية من هذا؟

و يجب القول من باب الموازنة العادلة أنه لو كان للسود في أمريكا مثل ما كان للزنج العبيد في العصر العباسي من سطوة و بطش حتى صاروا تهديداً لأساس الدولة الأسلامية لأخذت قضية السود عندهم أيضاً مساراً آخر و بشكل جذري.

في ليلة بأواخر تموز سنة 1964 كنا، أعضاء و رئيس الوفد العراقي الرسمي المشارك في أعياد 23 يوليه في ضياغة الرئيس جمال ببيته الحكومي في الأسكندرية و كان يستضيف نحواً من ألقي ضيف أسود فذكر سبب أهتمامه بهم داعياً و زائراً أنه يحاول عن طريق تعريفهم، بالمسلمين محو الصورة المرشحة في ذهن الأفريقيين عن العرب و المسلمين أنهم كانوا نخاسين يصطادون و يبيعون السود عبر القرون. ومن المفارقات التي أيدت عندي كلام الرئيس جمال أنني في مساء 23 يوليه أثناء الأحتفال المقام في ميدان التحرير كنت جالساً مع أمثالي من الوزراء في الصف الثاني بعد صف رؤساء الدول فجاء ضيف أسود و قعد على كرسي المخصص للشيخ مصطفى أسماعيل الواقع في الطرف اليمين لكراسي لالصف الأول و بعد نصف متر مني الى أمامي.

و جاء التشريفاتي ليقول للضيف الأسود، و بأدب بالغ، أن كرسيه مرقم و مكتوب عليه أسمه في مكان آخر فلم يلتفت الضيف الى كلامه و مكن لجلسته بتحد سافر فلما لم يفد معه ذلك لم أملك نفسي من التدخل بنكتة مساعفة {حبكت معي} فطبطبت على كتف الضيف العنود و قلت له لا مانع من بقائك حيث أنت و لكن عليك عند بدأ الحفلة أن تفتحها بقراءة القرآن و أشرت الى الميكروفون أمامه فهب من مجلسه كأنه قاعد على ثعبان.

في خواتيم العمود الأول يبدأ كلام مشحون بالعاطفة المشبوبة التي صحت أن تكون بمزاجها البراكماتي وسيلة لقتل عصفورين بحجر فاتك بأتهامك الخطيرة لشيطنة الرأسمالية الأمريكية في إغناء الغنى و إفقار الفقير و نكال السود و الهنود و إشاعة الفساد و المخدرات مضافاً اليها سوء الأحوال في المستعمرات و ممالأة اليهود في فلسطين أخرجت أمريكا من نطاق حضارة العصر في غير جانبها المادي النفعي المخصوص بقرارينها.

هذا عصفور واحد، ومن باب التداعي العكس و مفهوم المخالفة أخرجت بلدك عن مرمى أي من الجرائم التي يمكن أن تكون مشتركة بين أمريكا و غيرها من الدول. و هذا عصفور ثان. وقد تأكد و تكاثف هذان المعنيان بسطور لاحقة الى أواخر العمود الثاني حيث ينهض قياس النقيضين بتصوير أنفسنا ورثة الأديان السماوية أصحاب عقيدة (أن الحق حق ة الباطل باطل). و تخصيص ورثة الرأسمالية بفكرة أن القوة هي الحق، فالباطل القوي حق و الحق الضعيف باطل.

ها هنا يكاد القلم يجف في يدي فلا أمد كيف أستنطقه و أول كلمة تنساق الى القلم بلا ميل هي أن الأديان السماوية التي تحسب لها حساب هي اليهودية و المسيحية و الأسلام، و أصل الثلاثة هو التوراة اليهودية، و خصوم العرب هم اليهود و المسيحيون خارج بلاد العرب فلا خصومة مع اليابان و الصين و أغلب الوثنيين في هذه الدنيا ولولا إن الروس ومن في حكمهم رجعوا من الألحاد الى المسيحية لقلنا بعدم وجود خصومة معهم أيضاً فكيف يتأتي لي من البداية أن ورثة الأديان السماوية مجمعون على تسمية الحق بالحق و أنه واحد في نظر المسلم و اليهود على حين لم يكن العرب على عداوة واضحة مع البراكماتية بل لم يصبح مثقفوهم معادين لها لولا وجود صداقة بين أمريكا و اليهود؟ و أين الحد المشترك بين المسلمين و المسيحين فيما هو (حق) وقد أستهل الأسلام فتوحه بدك أمبراطوريتين أحداهما مسيحية و ثانيهما بفتح مصر المسيحية القبطية وما جاورها من ديار، فأجل نفسه محل دينها ثم أصل اللسان و العنصر العربي محل اللسان و العنصر القبطي حتى لم يعد له خطر! وأنتشر الأسلام بالقوة القاهرة و برباط الخيل (ترهبون بها عدو الله و عدوكم) حتى فتحوا شمال أفريقيا وعبروا منه الى الأندلس المسيحية وكادوا بعدها يفتحون فرنسا المسيحية لولا نكسة كالتي حدثت في (أحد) نتيجة الأنشغال بالأسلاب.فلولاها لكان مصير أوروبا غير مصيرها في أقوى الأحتمالات.

و جاءت الحروب الصليبية بعمرها الطويل في أعقاب العداوة المستمرة بين المسلمين من أمويين و عباسين و بين البيزانطيين و بعدها كانت الفتوحات العثمانية قروناً في الجنوب الشرقي من أوروبا المسيحية حتى أنتهت بالحرب العظمى الأولى ومن يومها قام الشر و الجذب بين الشرق الأسلامي و بين الأستعمار الغربي المسيحي ولم ينته بعد. فأي حق هذا الذي ورثناه أو ورثتموه من الأديان السماوية لتتميزوا به عن الرأسمالية الأمريكية المسيحية، وعن الرأسمالية اليهودية؟

على أن الأشكال لا يحصر في الصورة المتقدمة فأن (الحق) لم يستكمل أي شكل متفق عليه في أي من الأديان بما كان بين مذاهب كل دين من خصومات و حروب هي شر من أي باطل بلا حرب. منذ الفتنة الكبرى بمصرع الأمام عثمان لم يهدأ للمسلمين بال بسبب النزاعات العقائدية وما نشأ حولها من الأغراض الشخصية أنجذبت اليها الناس و تحاربت بسببها فتأريخ المسلمين بحل متصل من الغارات و

الأكتساحات و الأستباحات أوقعها المسلم بالمسلم حتى أني لا أكاد أقتنع بأن الزمان أتسع لكل تلك الفواجع المتلاحقة بين المسلمين عبر العصر الأموي فالعباسي و أستغرب كيف بقى التناسل ممكنا مع ذلك الأسراف البهي في القتل بالجملة و أستئصال طوائف عن بكرة أبيها و أكتساح رباع حتى لا يبقى شجر مع شجر و حجر فوق حجر وبشر في حضن البشر.. ألوف الأطفال و النساء و العجزة يذبحون ذبح الدجاج بعد المآسي الخلقية البهيمية الكافرة المارقة: و الحال بين المسيحيين هو ما تعلمه منذ قربت شوكتهم و بعبارة أخرى منذ صارت المسيحية دين دولة و تفرقت الى مذاهب و نشأت بها مدارس و كفانا مثلاً أن حربين عظيمتين أنبعثتا أول أمرهما بين دول مسيحية حتى أن الأسلام لم يدخل طرفاً ثالثاً في الثانية.. حرب السبعين سنة و الثلاثين سنة و حروب نابليون و المذابح ابلمذهبية و التنافس على المستعمرات المشوب بالدم من غير حرب معلنة و الأستعانة بالقراصنة في عرض البحار السبعة بما فيها مد و فواجع.

ولنترك ذلك كي أتوجه بسؤال بسيط يجيب عليه أي معتن بالحق: ماهو الأرث المنتقل من الأديان السماوية ليكون حقاً يقيم الخصومة الساخنة بين العراق و بين كل من الأيران و تركيا و سوريا و مصر فالسعودية و أمارات الخليج؟ أم أنه أرث موجود و لكنه معطل؟ فأنه كان معطلاً من ثلاثة ألاف سنة ولم ينشط إلا هينات راح بعدها في نومة أهل الكهف مضروبة في عشرة.. و تركت اليهودية في دائرة الخصومة التي مركزها العراق حتى لاأثر حساسيات، لها نهاية مع أنها منبع الأديان السماوية و لاتنفصل من المسألة لولا فاصل السياسة.

حاولت أن أجد صيغة يستقيم فيها مدلول "ورثة السماؤ" على وجه أرتاح اليه فتوسلت بالتجريد و أن المقصود منه هو الحق الخالص المفهوم من وحي يفيضه الخالق لا ما يتفرق فيه الناس بالأجتهاد الفاسد و الهوى الفارغ و عمى القلوب ولكن مسعاي خاب قبل أن أخطو فيه فهذا (الأرث المجرد) لا يرسوا في مرفأ أحد بل يبقى طافياً و يظل فلكاً لكل الناس بالأدعاء و خارج ملك كل الناس بماهو واقع و قصاراه أن يرتفع علماً أعلامياً يستطيع الكل التلويح به في وجه الكل أو يستظل به مالك الرقاب في إنقاذ مايرى أقرب الى مصلحته وهذا ما فعله أصحاب الشأن في المصالح الكبيرة عبر التأريخ.. قميص عثمان ليس إلا!! و اليهود أول من يتكل الى تراثه السماوي في دعواه (بين النيل و الفرات) و المسيحيون بأستنادهم الى العهد القديم و الجديد يجدون الحق في شجب الأسلام الذي هو بنظرهم دخيل على السماء كالبهائية في نظر المسلم.

واليهودية تعتبر كل دين جاء بعدها دخيلاً وإلا لأمنت به. وماذا فعل المسلمون بهذا الأرث في واقع العمل؟ ألم يكن آل عباس وكلاء عن آل البيت في دعوى الخلافة ملما حازوها كانوا أشد عليهم من آل مروان؟ تقول الرواية أن رئيس الطالبين رفض الوظيفة من المستعصم و تقبلها من هولاكو وهو الذي مهد بتوقيعه لتوقيع بقية العلماء على بيان أملاه هولاكو يقول أن الحاكم الكافر العادل خير من الحاكم المسلم الظالم ولا ألومه و ألوم الحال الزرية التي أباحت الحرام ولا يفيد فبها أرث سماوي و أرضى إلا الأذعان. ماذا فعل المعتصم بأفشين ﴿ وهذا مثال متواضع جداً﴾ الذي قضى على ثورة أو فتنة الخزّمي؟ آخذه بأمور منها أنه غير مختون وهل كان مختوناً وهو يزيح هم الخرمي و خطره عن صدر المعتصم؟ أم صار غير مختون على حين فجأة؟ وما ظنك بالفاطمي حين يصل الى القوة و السلطان في شعب منقاد لكل الحكام في عساه أن يكون يتسع المجال لزيادة السلطان و تفاقم الطغيان بما في القدسية من قدرة على تنزيه الذات و تخوين الخصوم ولسنا نضمن وجود على و عمر بن عبدالعزيز و غاندي من القديسين الحقيقيين في الحكم حتى نتوقع زيادة الخير بزيادة القدرة! ولنا أن نأخذ من الثورة الفرنسية عبر الثورات بعدها حتى يومنا و أذكر الملعون روبسبير في مساومته على شرف سيدة جميلة فلما أمتنعت عليه لفق لها تهمة سلمتها الى المقصلة لعنة الله و لعنة التأريخ و الجغرافيا عليه وعلى أمثاله من المعروف لدينا حتى أبد الأبدين. ولي كلام عن الثوري أنقله من (هموم الحياة) بنصه فيقول ما يلي: "فأقول له – أي للثوري – و لجميع من على شاكلته في عالمنا الثالث أني أخاف أحتمال وصولهم الى

الحكم بمثل اليقين الذي بنيت عليه خوفي و كراهيتي و تقززي من حكم عيدي أبن و ستالين و هتلر و كل الطغاة القساة على مدى التأريخ فليس حَمَلَةُ السكاكين و البنادق من مناضلي عالمنا في خنادق المقاومة إلا عفاريت صغاراً ستأخذ فيس ركوب المتون و كسر الأعناق و قطع الأعراف و حرق الورود و الأوراق:

أنهم قد يكونون مدافعين عن أنبل القضايا ولكن بروح الذئب المطامع في القطيع وقد يكونون أبسل الناس في الجود بالروح ولكن في تربص قاطع الطريق بالقافلة. أنهم في الجملة صور كاميرا سالبة للمستبدين الذين أستأنزوا بالحكم فأذ صارت صوراً موجبة بدت على حقيقتها المكفهرة في دست الحكم ذلك أن أحسنهم أخلاقاً و أوطأهم أكنافاً@ و أقربهم الى المرحمة تناهوا من خلال أيمانهم المطلق بالذات الى الأدانة المطلقة لذوات الآخرين فليس في قاموسهم السياسي حيز للحرية و الأختبار إلا أن تكون حرية تأليلهم و أختيار تقديسهم و التسليم بما يؤمنون."

أفتح عيني على عراق اليوم بعد أربع و ثلاثين سنة منذ تموز 1958 و أنحسار هيمنة الأنجليز عنه و تضاعف دخله مرات و مرات و أقارن بينه و بين ذرائعية الرأسمال الأمريكي الملعون و قداسة أرث العراق السماوي و عدالة أشتراكية فماذا أرى؟ هل تحتمل صراحتي؟ ولم لا، أنها ليست للنشر.

أما الأرث السماوي فقد تكلمنا فيه بجزء يسير من مغباته يغنينا عن كثيرها. أما الأشتراكية فأني أكتفي فيها بأثنتين من علامات المينة: أولاهما وهي أخفها. أتساع الشقة بين الغني و الفقير الى حد لم يوجد مثله في ماضي زماننا. و حصول المستحيل بأزدياد عدد المليونيرية على حين يوشك فيه سواء الناس على المسغبة وقد تكاثر عدد من يمدون اليهم الى تسول اللقمة و التبلغ بالحثالة حتى كأن قوة خفية تضخ في بنيتنا مقادير من الفساد كافية لتحل محل غيرها في كل شيئ: عراة مفاليس أصبحوا يملكون قصوراً خيالية و سيارات أسطورية و متعاً لم توجد إلا في الأحلام.

قرأنا صحيفة عراقية أن أحدهم ألقى على قدمي (خاتونة!) في حفلة عامة بصك من مليون دينار أكرمها به و هزم فيه منلفسيه في تكريم الفنانة!! مليون دينار على حذاء مومس جهارا نهارا عارا شنارا بعد أم المعارك و ندرة الأكل و أنتشار عارضي الخدمات من كل صنف دمرت الأطفال من قلة الحليب و الدواء!! يدقون بابي يطلبون ما يفطرون به في رمضان فأقطع لقمتي حتى لا أخيب فيهم ولا يخيبوا من رحمة ربهم! يشحذ أحدهم كفاً من النفط في بعض أجزاء هذا الوطن يرد به الموت عن وليده في زمهرير الشتاء! أنا أعلم كعلمك أن الأشتراكية المفتعلة بفرضها من أعلى كارثة أجتماعية أقتصادية في حد ذاتها و لكنها مهما بلغت من السوء لا تستطيع أن تكون مميتة إذا كان تفاقم سوئها يجري بشكل مألوف كالمرض الذي يتزايد مع العمر حتى أرذله، لكن أذا كانت حالات الجوع و الفقر الكارث مجاورة للذبح الروكفيللري و مشفوعة بمليون دينار على طرف حذاء و تعلن عنه صحيفة رسمية تحت المراقبة فقد خرج ذلك أن يكون منرجاً تحت أي وصف أو تفسير أو تعليل بتكلفة مسعود محمد أو سعدون حمادي أو حتى كيسنجر السيئ الصيت! يخيل ألي أن في ساحتنا لعبة سحرية تتحدى كل العقول، قوام اللعبة هو الأعلان عن هدف سخي طموح نعتبره من أسس وجودنا ومن مفاخر حضارتنا ثم نعمل شيئاً هو النقيض التام لما أعلنا عنه بالجهر الكامل وبلا مواربة أو أعتذار و لينفلق من ينفلق غيظاً أو فليستوح من ذلك منطقاً رسمياً يقول: هذا ما أفعل و ليرفع الرأس من تهون عليه نفسه.. و تذكر معي دون شك أن منطق محاكمات (وتوت) في 1968 في عدم أعتنائها بالأثباتات و التنفيذات وهي تصدر أحكامها هو هذا المنطق بالذات! لقد حققنا المستحيل في بعض سنوات الحرب مع أيران إذ جعلنا طلابنا يتعمدون

الرسوب في الأمتحان النهائي للخلاص من مآسي النجاح، فيكشف المشرفون عليهم حيلتهم و يبطلون مفعولها بحيل مستخرجة من جراب الحاوي.

و تتحقق المستحيل في صورة علمتنا التي صارت حيرة كبرى و مشكلة تتأبى على فهم أكبر السحرة فلم تكن الفلوس قط مظنة حيرة في تدبير المعيشة و لكنها الآن مشكلة المشاكل: محكمة جرمت شخصاً رفض نقداً من فئة 25 أو 50 ديناراً فغرمته 80 ديناراً فلما راح يدفع الغرامة رفضت الخزينة قبولها من فئة 25 أو 50 ديناراً.. في نقاط السيطرة بالطرق الخارجية يأخذ1ون من المسافرين ورق العشرة و الخمسة دنانير و يعوضونهم (أولا يعوضونهم) بنقد من فئات لا تروو أو تروج بنقص من قيمتها يبلغ أحياناً حدا النصف.. أخر مرة رجعت فيها من أربيل عبر الموصل لم يقبل صاحب التاكسي من أربيل نقداً من غير عشرة و خمسة دنانير، و السائق من الموصل الى بغداد وهو كردي يعرفني رضى بتنصيف نوعية الأجرة: 75 ديناراً بعملة فئة عشرة و 75 ديناراً بعملة فئة 25 ديناراً، و تلك الأمثلة هواش و أفادية و نمنمات من مشاكلنا الأقتصادية بعضها نابع من صعوبة الأحوال بعد أم المعارك خاصة و بعضها نابع أصلاً من الأشتراكية المفتعلة التي قصد بهخا السيطرة على موارد المعيشة للناس من باب أحكام القبضة على أرادتهم و بعضها نابع من التخلف الذي يمكن أن يضع مئة مفسرة في مخاض واحد ولا يمكن أن يحدث مثلها في جحيم الرأسمالية البراكماتية أو أية رأسمالية لها ركائزها و أبنيتها التحتية و نظمها و ضوابطها و ضماناتها في بلدانها. إن أقتصادنا يا سيدي، و أقولها بألم شديد، هو في مشكلة الحاضر (أقتصاد الجريمة) في جانبه الخطير و الكبير و ليس له قربى مع القوانين الأقتصادية المشروحة في الكتب ولا صلة له بالكلايش الذكية التي منها ما يقول:

العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة فقد أنقلبت عندنا الى النقيض فصارت الجيدة تطرد الرديئة، كلا خارج ساحة الملعب وأعرف عوائل صارت تبيع مصنوعاتها تعيش منها شهراً بعد شهر على مرآى مليون دينار في طرف حذاء.

المرتشون و المزورون و المهربون و اللصوص من (ديح الليل و غارة النهار) و القتلة المأجورون و المتصيدون صاروا طبقة فوق الطبقات لاينالها القانون، و الغارقون من الثروة العامة يفتخرون بالقدرة على تمدي الأرض و السماء. و أرتقى آخرون بالحرام أعلى وأعلى حتى صاروا وراء، مايسمى (عتبة الرؤية) Threshold of vision في ملكوت الصعود و آخرون يمارسون التفاريح بما لا يمكن الخوض فيه و يكفي أنهم يأتون بالبنت الحلوة المستورة فيلعبون الورق على جسدها العري و صديقتها تشكر ربها على أنها خلقت قبيحة.

أظن أن هذه من المرات النادرة التي يكون فيها القبح أمل الأنثى.. وعاشت ألواح حمورابي من ورثة الود و يجهد مسعود محمد في محامدة الدكتور سعدون حمادي على بعد أميال بما لا يجدي إطلاقاً، و المركب الخالد منطلق الى الهدف بشعارات الوحدة و الحرية و الأشتراكية أو يحزنزن في أقتصاد منسوب الى أي هيكل لنظام أجتماعي سياسي يمكن أعطاؤه أسماً من نوع ما، فيختار لي كيف يلتقي الأرث السماوي في نزاع مع البراكامتية الأمريكية و غير الأمريكية بل أي مذهب أقتصادي سمع به البشر.

وثاني العلامتين هي أغرب غريب في مجالات السياسة و الأقتصاد على أوان أرتفاع الشعارات المحددة و مفاهيمها و عانيها و مرامها المؤكدة للعدالة و المساواة و إقالة المعوز في فقرة و أسعاف الريفي بيد التأريخ ما سمعت بمثله، فالتفاوت يحدث عادة في كل شيئ حي و يتزايد بصعوده في سلم التطور وهو أم طبيعي لا يتعب فيه أحد و كان ما يحدث في ثروات الأفراد من تفاوت الى ما قبل أنتشار المذاهب الأجتماعية الداعيى الى المساواة أو الحد من مدى الفوارق، يحدث من ذاته بلا تدبير من أحد فلم تكن الحياة منضب ولا المداخيل معروفة المقدار ولا المهارات التنظيمية ناضجة لينصرف الجهد الى مناهضة التفاوت بشكل جذري فبقيت الجهود في ذلك بحدود الزكاة و بعض

الضرائب و الرسوم في تفصيل لا نحتاجه... ولقد وجد التطور في محاربة التفاوت يبلغ مدى تصل فيه نسبة ضريبة الدخل 100/100 إذا ماجاوز رقماً معيناً. يحدث هذه بلدان لم تعلن الأشتراكية فأين العراق من ذلك بما أعلن من أشتراكية مفروضة بالقانون و الدستور!

لأول مرة يقع في التأريخ أن تخلق الدولة مديات من التفاوت في الدخل لا يمكن أن تحصل بذاتها فيأتي القانون في العراق فيجعل راتب فئة معينة مئة ضعف لراتب غيرها تضاف اليها مزايا متعددة تعد بالفارق الى مئتي ضعف و أكثر: متقاعد راتبه 600 أو 400 أو 500 دينار في السنة يقابله موظف ذو تخلقها القوانين يتجاوز راتبه السنوي خمسين ألف دينار تلحقه أكراميات وهبات وعيديات تصعد بالخمسين ألف الى مئة وخمسين ألف فأذا أضيفت اليها سيارة سوبر، وهي تضاف بلا شك، قفز الراتب الى الوهم. علمنا أن موظفين في درجات و عناوين معلقمة توزع عليهم في الشتاء فواكه الصيف القادمة من أفريقيا.. فيبيعون مازاد من حاجتهم الى البقالين فيبيع البقال كيلو العنب بخمسة و عشرين ديناراً و ذلك قبل أم المعارك... ورأيت بعين ناساً من مساكين خلق الله يرقبون هؤولاء الأديان السماوية فأذا رموا قشر الموز ألتقطه مسكين فأخذه هدية الى ولده يلحس باطن القشر.

قانونياً ياسيدي يفرض التفاوت و يوسعه و يحميه كلمة أمر من التفاوت نفسه.

الرشوة قاعدة عامة في كل معالمة بها جانب منفعة أو فيها خطورة من نوع ما.. و أسوأ مافي الرشوة أنها في مثل أحوالنا خير من عدمها المؤدي الى موت المصلحة وما هو أعز.

السرقات تحدث بحماية من ذوي الشأن.

غرض المرور.. هذا الوديع! أصبح يفرض ذاته و رغبته على كرامة الناس الى حد الفجيعة.

التهريب، أصطياد الحسناوات.. و كفى فقد طفح بي الكيل و أترك الأرث السماوي يرتق الفتوق و يحمي الفرد و يسد الثغور ويلأم الصدوع فبأسمه ترتكب الجريمة و يستحل الموبقات و تستباح الأعراض.. وفي القلم قطرات من جد أصرفها في تسطير ما يلي: لايكون علاج الفجيعة بنشر غسيلنا أو غسيل أمريكا على حبل ذرائعية وعلى مروق المارقين في جبال القافي ة جزر واق الواق فالعلة وطنية داخلية غير مستوردة و تأريخية و ليست مفروضة من العفاريت وهي منكشفة لكل عين و أفرح مغباتها أرضاء الحبل لمزاجها اللعين.

ولا يوجد غير شخص يستطيع العلاج إذا صح منه العزم.

ودم بخير و عز وأقبل في الختام المبكر قبل أوانه تحتية و محبة المعتذر عن التصديع، عارف فضلك:

مسعود محمد

ملحوظات:

رجوعي الى نماذج من كتابتي هو بهدف الكشف عن معاناة ذات خلفية قديمة في هذه المواضيع حتى. لا ينصرف الظن الى أني أرتجل الرأي و أخلق الموقف في مناسبة متاحة. و لعل أن تكون العينة التالية مقاربة للعمق الذي بلغته في وجوب الأرتفاع فوق أسف فات الشد و اجذب و المهالكة على الطمع و ما في الذرائعية و السلوك السياسي العام من التبرير للأنحراف الى الترخص:

الصفحة 75 في كتابي " من هموم الحياة" تحوي السطور التالية:

"أليس في المراقي سلم واحد خارج مضمون التناقض و وحدة الأضداد؟ أني ليبشعن أن يكون وجودي من عدمك و أن تنموا من هلاكك سلامتي و ينبع من أفلاسك موردس. أكره الوجود جملة و تفصيلاً أذا ثبت بناؤه بالبرهان القاطع على مبدأ التنافي و التضاد و المهالكة و يئست حياة تولد من الموت و تحبل بالخراب. أن كراهيتي للموت و العدم و الأنقضاء و التلاشي تدفعني الى التمسك بالحياة و دحر ما ينقضها و الأحتيال لما يدعيها حتى الى صرت أنتحل عقيدة تعاكس مفاهيم التناقض و المفاسخة فأذا تأكد بما لاشك فيه أن بقائي موقوف على هلاك شخص آخر أصبح عندي في لزوم الحياة نفسها أن أتحايل على حكم الحتمية هذه حتى أجد صيغة معادلة تختزل عامل الحتمية و تمهد للمعايشة و المصاحبة فوجدت الصيغة في أن أتنازل عن شيئ من أسباب تعلق دوامي بهلاك فلان و يتنازل فلان عن شئ مما يربط دوامه بهلاكي فتكون ثلاثة أرباع كل منا أجدى عليه و علي وعلى الناس كافة من دواء أربعة أرباع واحد منا ولأنعدام وسيلة للتعايش تساعد كلامنا على أستعادة الربع الذي تنازل عنه في المصالحة فنصبح في الختام ثمانية أرباع كاملة.. وإذا كان التوصل الى هذه المعادلات المريحة لا تتم..".

فيما يخص ملحوظتي حول مستوطنات الهنود الحمر وهل هي برغبتهم أم ضدها: تجد الى الشمال الغربي من مدينة (الأفق الجميل.Belo–Horisonte) مستوطنة هندية مؤشرة على خارطة البرازيل وقد حاد عنها طريق السيارات الى شمالها وحاد خط السكة الحديد الى جنوبها بقوسين يلتفان حول المستطنة حتى يتجاوزاها فيستقيم أتجاههما في غربها. في الأرجح في هذا Oxford Atlas الصادر سنة 1951 و المعاد طبعه في 1958 ، 1961 ، 1963 الى ماقبل ربع قرن. ولهذه المستوطنة ذكر أيضاً في الجلس الموسوعة البريطانية الصادر في أواسط السبعينات ولكن ليس في تفصيل المصدر الأول. و مدينة (بيلوهوريزونت – الأفق الجميل) تخالط ذكريات صباي بعمر أول المتوسطة إذ التقيت بكشكول لأشعار شعراء المهجر فيه مرشحة مستزادة لأحدهم ترسل الشوق و اللهفة على جناح الحمام الى محبوبته في مدينة الأفق الجميل وهي تسوغ في مذاق كل عمره.

ياعروس الروض يا ذات الجناح	**يا حمامة**
سافري مصحوبة عند الصباح	**بالسلامة**
و أحملي شوق فؤاد ذي جراح	**و هيامه**

حتى يقول:

رفرفي في روضة الأفق الجميل و تغنى

وأنظري محبوبتي عند الأصيل و تأتي

فهي أن تسألك عن صب عليل كأن غني

خبريها أن قلب المستهام ذاب وجدا

وسليها كيف ذياك الغرام صار صدا

فهيامي لم يعد فيه هيام بلد تعدى

الى أخر الموشحة.. ولا أحفظ كلها بل جلبها عساها تقع موقع القبول في ذوقك الأدبي وهي مقتمة على غير ميدانها.

في الأرث السماوي: تحاشيت مناقشته على أحنمال أن يكون القصد منه هو الأسلام وحده على تأويل أن يكون هـو المـيراث الـذي لم يعتوره التحريف ففي ذلك أحراج لك في أنتمائك الى حزب كان مؤسسة مسيحياً، و وزير خارجيته مسيحياً و ملايين من العرب المسيحيين.

ولابد من القول بأني تركت تعليقاتي ضد رغبتي فقد كان بودي لولا ؟أنتكاسة شعوري أن أستمر مع مقالتك حتى نهايتها.